قصة
حين
من الزمن
أميرة زقزوق

حين من الزن

نظرتُ إلى حذائي الجديد ذو الكعب العالي، كان يلمع مثل الألماس وحوّل قدمي إلى قدم سندريلا، راقني شكله فطفرت ابتسامة على شفتي ، رفعتُ يدي المثقلة بالخواتم فأزحت شعري المسترسل من فوق عيني، التفت يساري إلى المرآة التي تحتل نصف الحائط ونظرت لنفسي بامتنان وإعجاب حقيقي بجمالي وجمال ملابسي ، ومن خلفي غرفة واسعة يغلب عليها اللون الزهري فعكس من البهجة الكثير، طُرق باب الغرفة واندفعت منه الخادمة بعنف تنادي اسمي (رضا)...نظرتُ إليها بتعجب وانعقد لساني من تصرفها الغريب، وعندما وجدتنني لا أجيب اندفعت بعصبية نحوي تهز كتفي بعنف شديد ،وهي تصرخ بوجهي " هيا استيقظي رضا... رضا...رضا "

اختفت الغرفة شيئًا فشيئًا وتحولت ملامح الخادمة إلى ملامح أمي التي كان يبتعد وجهها عن وجهي بنصف إنش فقط، فاعتدلتُ في جلستي وأنا أزيح آثار النوم من وجهي بيدي، فانتزعتها أمي بعصبيتها المعهودة قائلة : هيا يا كسولة ساعديني كي يذهب إخوتك إلى المدرسة، ما كل هذا النوم؟

ترسب في قلبي كثير من الحزن لأن هذا واقعي وليست تلك الغرفة الجميلة التي دائما ما أحلم بها، هذا هو واقعي أنام على أريكة من الخشب بجوار أمي ، أما إخوتي الصغار؛ إيهاب ومدحت على أريكة أخرى مقابلة لأريكتنا لا يبتعدون كثيرا، فمنزلنا كله عباره عن غرفة واحدة تحت الأرض نهبط لها ببضع درجات سلم، ولكن على أية حال فنحن ننام فوق شيء ما، أما أخي الكبير مصعب فينام على الأرض هكذا دون شكوى منه أو تذمر، لكن حتى وإن اشتكى فماذا ستفعل له أمي؟ أو ماذا بيدها؟ إنه يعلم أن هذا هو واقعنا ولا مفر لنا منه.

أزحت الغطاء المتآكل من فوقي ونهضت أوقظ إخوتي وداخلي يتألم لحالهم، هؤلاء الصغار كان يحق لهم عيشة أهنأ وأكثر آدمية عن هذه، قطع تفكيري صوت أمي المرتفع دائمًا لا تميز إن كانت تصرخ أم أنها قد تعودت على الصراخ فأصبح هذا هو صوتها، " سأذهب لأحضر الماء من الصنبور العمومي قبل أن يذهب أخوكِ "

سألتها بنفاذ صبر " هل انتهى الماء لدينا بهذه السرعة؟ "

قالت وهي ترمي حجابها فوق رأسها بإهمال : نحن خمسة أشخاص يجب أن ينتهي بسرعة، هيا أيقظي إخوتك ولا تطيلي بالك هكذا، ماهذا البرود؟ هيا تحركي .

قالت جملتها الأخيرة وهي تغلق الباب خلفها، أيقظتُ أخوتي الصغار ثم ساعدتهم على ارتداء ملابسهم دون حتى أن يغسلوا وجوههم من بقايا النوم العالقة به، توجهت إلى حيث نضع أدوات المطبخ عند ركن من أركان الغرفة بجوار باب صغير يؤدي إلى حمام بالكاد يسع جسد فرد واحد، فتحتُ باب الثلاجة بحذر شديد فهو مهدد بالسقوط في أية لحظة، وجدت بها قليلا من الجبن وبقايا فول صنعته لنا أمي بعشاء الأمس كحفل وداع لأخي مصعب فهو سيذهب اليوم للجيش، نظرتُ لوجهه وهو نائم وأغلقت باب الثلاجة بحذر شديد متأملة ملامحه، تبدو صارمة لكن فيها من الحنان نصيب، تحولت بشرته الخمرية إلى سمار برونزي إثر عمله الدائم في شمس النهار، بالرغم من أنه يكبرني ببضع شهور إلا أن جسده يكبر جسدي بسنوات فأظهر بجواره كعصفورة بجوار فيل، لمَ لا؟ فهو مفتول العضلات نتيجة لانضمامه للنادي الرياضي بالقرية المجاورة واحترافه الملاكمة، ابتسمتُ وأنا أضع ورقة جرائد على الأرض كي أضع فوقها الطعام ،وطاف داخل عقلي ذكريات طفولتنا واتسعت ابتسامتي بمرارة عندما وجدت نفسي لا أتذكر سوي أمي وهي تطلب من أخي ضربي ، فكان هو يجيب طلبها بفرح وحماس ثم ينهال فوق جسدي باللكمات، لم أفهم وقتها لمَ تفعل أمي معي هذا؟! ولمَ قد تكره أم ابنتها لهذا الحد؟! إلى أن جاء يوم وصرخت بها أنني أكرهها لما تفعله بي فصعقني ردها عندما قالت " إكرهي نفسك لأنكِ ضعيفة لا تقوي على الدفاع عن نفسك "

ابتسمتُ بمرارة وأنا ابحث عن الخبز فلم أجد سوى القليل ،وضعته ثم ناديت أخوتي واسترسل عقلي في ذكرياته، لا أنسى حينما نهضت وهاجمت مصعب بكل ما فيّ من قوة، بل وكانت قوة زائدة عن جسدي جاءت من الغضب والسخط اللذان كانا يملآن جسدي، وانهلتُ فوق وجهه باللكمات، حاول أن يتفاداني ولكن غضبي وقتها كان أقوى من جسده فوقع على الأرض، ولم تسرع أمي لإنقاذه كما توقعت وتماديت في ضربه كي يشفى غليلي ولكني توقفت حين رأيت خطا أحمرا ينزل من رأسه ، فاندفعت للخلف بذعر فطمأنتني أمي وطلبت مني مساعدته على النهوض، ثم كانت دهشتي عظيمة عندما وجدتها تمدح عملي بسرور ظاهر وعلقت جملتها في رأسي" كونى قوية يا رضا فنحن في زمن الوحوش "

ومن يومها..كان دائمًا حديثي مع مصعب ليس سوى شجار ولكن ليس بشجار حقيقي فقد فهم أن مهنته هي تقويتي وتلقيني دروس الشجار كي أدافع عن نفسي أينما كنت، وأظن أن هذا هو سبب انضمامه للملاكمة فقد كان يتدرب معي أكثر من زملائه، ناداني مدحت بصوته الرقيق متسائلًا وهو ينظر إليّ بعينيه الواسعتين اللتان تزهرا في قلبي الورود: لمَ تأخرت أمي؟!

تنبه عقلي واعتدلت بجلستي وكأنه لفت انتباهي فقد تأخرت أمي بالفعل، أيقظت مصعب كي يتناول الإفطار معهم إلى حين أذهب وأتفقد والدتي، لكنه استوقفني وبقايا نعاس يتلاعب فوق جبينه: سأذهب لأراها أنا ، ابقي مع هذين العفريتين.

أذعنت لأمره وجلست أساعدهما في ارتداء ملابس المدرسة التي أصبحت بالية ممتلئة بكثير من الحياكة في محاولة بائسة لمحاربة عوامل الزمن على قماشها، ودعتهما بقبلات منهمرة على خدودهما التي تزرع بقلبي شيئًا من الحب، جلست فوق الأريكة وقد جف حلقي من شدة العطش، ترى ماذا تفعل أمي ولمَ لم يأتي بها مصعب إلى الآن؟

انتفض جسدي حين اندفع مصعب فجأة من خلف الباب يحمل أمي بين يديه مغمضة العينين ومستسلمة تمامًا، ففزع قلبي وهرعت أساعده كي يضعها فوق الأريكة وأنا أصرخ بهلع: ماذا أصاب أمي يا مصعب؟

أجاب جميل من خلفه بنبرات بلغ منها القلق أقصاه: لقد كانت تملأ الماء ثم وقعت هكذا فجأة، ولكنها استفاقت لا تقلقي.

اعتصرت يديها وعيناي تشبثان بملامحها المرهقة وقلبي يكاد يقف من شدة خوفه، نظرت لمصعب لأجده ينظر إليها بخوف لم يُخفى عني من وراء نظراته الجامدة، فتراقصت دمعة بين أهدابي وقلت بصوت أجش: مصعب يجب أن نذهب بها إلى المشفى.

اكتفى بالنظر إليها ولم يتفوه بكلمة، ولكن جميل أجاب نيابة عنه: لا تقلقي رضا فقد هاتفت طبيبًا صديقي وهو في طريقه إلى هنا.

نظرت إليه بامتنان ولم أزد عن هذا، أما مصعب فكان يرتدي ثياب التجلد وأنا أرتدي ثياب الصبر بينما داخلي قد انهار تمامًا، وملامح أمي تنهش صدري بضراوة، ماذا إن فقدنا السند الوحيد بهذه الحياة؟

جاء الطبيب بعد أن غادر كلا من إيهاب ومدحت إلى المدرسة، بدأ بفحصها تحت أنظار ثلاثة أزواج من العيون، التفتُ لمصعب الواقف بجواري، كان ينظر لأمي وكل خلجة من خلجات وجهه ترتعد قلقًا، ولكن عيناه جامدتين بخلاف مايعتمل داخل صدره، وددتُ لو أحتضنه، أمسك بيده ونبكي سويًا ثم أطمئنه أن كل شيء سيكون على ما يرام، ولكن أبدًا لم تكن علاقتنا بهذه الشاكلة، كنا نخفي مشاعرنا وراء ملامح جامدة وكأنها شيء نخجل منه، لكم تمنيت لو أن البكاء لا يحول دون المظهر القوي، ولكن أمي كانت تُحرّم علينا حتى الحزن!! علمتنا أن إظهار الحزن ضعف، والضعيف بزمننا لا يوجد له مكان.

" إن ما حدث لها بسبب فقر الدم، ستتناول هذه الأدوية وتصبح بخير، ولكن يجب أن تتغذى جيدًا "

قال الطبيب هذا وهو يدون شيئًا على ورقة بيده، نشلها مصعب تحت أنظاره المتعجبه وركض للخارج دون كلمة، جلست جوار أمي التي استفاقت بعد أن ذهب جمال بصحبة الدكتور، قلت لها بصوت جاهدت أن يكون خشنًا كي لا يظهر خوفي عليها: سأعد لكِ البطاطا وتتناولينها الآن.

قالت وهي تعتدل بجلستها فوق الأريكة: لا هذه للغداء اذهبي أنتِ لعملكِ هيا.

رفعت حاجبيّ دهشة، كانت تصرح حتى وهي متعبة، قلت بعناد: لن يموت الناس إذا لم يرتشفون الشاي، كفاكِ ياأمي!

طلت السخرية من نظراتها، وبابتسامة مريرة علقت: ولكن نحن من سنتأثر إن لم يشرب الناس الشاي يارضا، لسنا برفاهية أن تتركي عملك ولو ليوم واحد كي تعدي لأمك الطعام.

ضاق صدري، وكاد يختنق قلبي، دائمًا ماتذكرني بحالنا ومرارة عيشتنا، قلت بصوت مختنق:

فلتقولي ما تشائي، لن أذهب لمكان وسأعد لكِ البطاطا.

أمسكتني بحدة من معصمي، ومنعتني من النهوض، نظرت إليها بحنق فقابلت نظراتي بخوف لمع داخل حدقتا عيناها، اهتز جسدي فكانت المرة الأولى التي أرى هذه النظرة بعيونها، قالت بنبرة جديدة عليها منخفضة إلى حد غير معقول، ولكن بها شيء من الوعيد: ستذهبين لعملك يارضا، ستذهبين كل يوم ولن تتقاعسي عنه أبدًا.

قاطعتها: ولكن يا أمي..

شدت قبضتها على معصمي، فأكملت: ليس أخوكِ مصعب هو رب البيت، بل أنتِ رب البيت، أتفهمين؟!

كانت تحدق بعيناي فسرى بجسدي شيئًا من الخوف، شعرت أنها مختلفة عن أمي التي أعرفها، وكأن حدسي يخبرني بأنها محقة وتبلغني رسالة ما!! شعور مبهم بالخوف لا أدري سببه، ولكني بشكل أو بآخر أدركت أنه يجب أن أطيعها.

" هيا إذهبي وأخوكِ سيحضر لي الطعام قبل أن يذهب للجيش "

قالت جملتها وهي ترخي قبضتها من فوق معصمي شيئًا فشيئًا، نهضت من أمامها دون أن أتفوه بكلمة، خرجت بسرعة وكأنما أهرب من شيء، أهرب من واقعنا، أهرب من الفقر، أهرب من كسرة النفس، أهرب من أمي!!

****

عربة خشبية تحتوي على برطمان للشاي، وبرطمانين للسكر، والكثير من الأكواب، وبراد شاي متوسط الحجم، كان هذا هو عملي بجوار موقف السيارات، عمل مهين يليق بفتاة فقيرة مثلي لم تنل من التعليم حظًا، لم أكن ساخطة على العمل بقدر كوني ساخطة على نفسي، فبأي عمل آخر كنت لأنجح؟! لم يروقني الخدمة بالبيوت، فمازلت على يقين أن كوني فقيرة ليس بالضرورة أن أكون خادمة، خلاف أمي التي ترى أن أي وظيفة لا تخالف مبادئنا هي وظيفة تستحق التبجيل إن كانت تجلب المال.

" أريد كوبًا من الشاي يا جميلة أنتِ"

التفت بغتة لصاحب الصوت، فوجدت وجهًا غريبًا عني فأدركت أنه جديد في الحي إذ يعلم الجميع من هي رضا، ويدركون جيدًا عقوبة من يحاول التطاول عليها، استندت على العربة وأنا أنظر إليه باستهزاء: لا يوجد لدينا شاي، هيا أغرب من هنا.

تشدق بعلكة وهو ينظر إلي جسدي المتوارى خلف ملابسي الواسعة قبل أن يجيب بنزق: ها هو الشاي.

كان يمد يده مشيرًا إلى الشاي ولم يخف عني أنه يحاول مس جسدي، فجفل حين التقطت يده وبحركة علمني إياها مصعب كنت قد ألقيته أمامي فوق الأرض، اجتمع رجال الحارة بلمح البصر يسألوني إن كنت أحتاج المساعدة، ولكني أجبت وأنا أنفض يداي تحت أنظاره المذعورة: أظن أنه تلقى الدرس.

نهض وهو يسب ويلعن، ثم غادر مسرعًا فقال لي عم جلال: لا نخاف عليكِ يارضا.

نظرت إليه بامتنان: هيا ياعم جلال فليذهب كل منكم إلى عمله.

اختفت الأوجه من أمامي تباعا ثم ظهر وجه مألوف منذ طفولتي، وجه لطالما كان أخي الرابع، كان جميل الذي ابتسم بنعومة ما إن رآني، أعلم أنه يحبني ولكن لا أستطيع أن أبادله المشاعر، أعرف أنه وهم كبير ولكن من يدري، فلربما وقع بغرامي رجل غني، لمَ لا؟

بادلته الابتسام فقال بصوته الرخيم: أردت أن أجلس معكِ قليلًا، فبالتأكيد أنتِ حزينة الآن.

غضن جبيني وأجبته بينما أنظم أكواب الشاي أمامي: لست حزينة فأنا مدركة أن أمي قوية وستصبح بخير.

ارتبكت ملامحه، فقال بعد أن سعل: لم يكن هذا قصدي.

نظرت إليه باستفهام أحثه على مواصلة الحديث، فاستدرك: كان مقصدي هو ذهاب مصعب دون أن يودعك.

صرخت بهلع: هل ذهب؟ ولمَ لم يودعني؟

شعر بأنه في وضع صعب فأجاب بخجل: لم أكن أعرف أنكِ لا تعلمين، ولكن أمكِ أصرت على هذا.

صحت بغضب: أمي.

توجهت عائدة إليها وجميل خلفي يصيح: والعربة؟!

قلت بصوت يغلفه الغضب دون أن أستدير نحوه: أغلقها أنت يا جميل المفتاح والقفل عندك.

****

دفعت باب الغرفة وهبطت درجات السلم بحنق، فلم أجد سوى أمي التي لم تتخلى عن أعمالها اليدوية حتى وهي مريضة!

سألتها والغضب يتطاير من فمي: أين أخويّ؟!

نظرت إليّ مليّا ثم أكملت عملها وأجانب بهدوء مستفز: أرسلتهما في عمل ما يكسبون منه بعضًا من المال.

مادت الأرض أسفل قدمي، وصرخت بها: ماذا؟ هل تمزحين؟ لمَ أنتِ مصرة على فعل هذا؟

نظرت إليّ باهتمام ممزوج بالدهشة: مصرة على فعل ماذا يابنت؟

قلت من بين أسناني المطبقة: تحيلين عيشتنا مرار فوق مرار، لمَ تصرين أن تتعبيهم في عمل لا طاقة لهم به، لقد ذهبت بهم إلى المدرسة كي يفلتوا من بين يديكَ.

تركت ما بيدها وقالت بهدوء أثار بنفسي الخوف، فهي في موقف كهذا لا تفعل سوى أن تصفعني على وجهي وتطلب مني ألا أرفع صوتي عليها مجددًا:

اجلسي يارضا أود أن أتحدث معكِ.

برغم سخطي عليها إلا أن حديثها كان به شيئًا غريبًا عليّ جعلني أمتثل لأمرها وأجلس، قالت وهي تنظر لأم عيني: أنا لا أحيل حياتهم مرار يا رضا، هي بالفعل مرار.

اعتصرت عيناي وكأني أود أن أطرد وقع حديثها عليّ، ولكنها أكملت بنبرة جامدة لم أميز بها أية مشاعر: لذا فيجب عليّ أن أعلمهم كيف يعتمدون على أنفسهم في زمن لا يتذكر الأخ أخاه.

قاطعتها بحدة: ولكن المدرسة ستعلمهم كيف يصبحون رجالًا، وحين يحصلون على الشهادة لن يحتاجوا لأحد كي يجدون عملًا.

ندت ضحكة استهزاء فوق شفتيها الشاحبتين: مشكلتكِ أنكِ تحلمين بعالم خالي من المشاكل، هل تظنين أنهما سيحصلان على شهادة حقًا دون الدروس الخصوصية؟!

كدت أعترض ولكنها أكملت بحدة: أعلم أنكِ تجعلين جميل المسكين يُدرِسهم، ولكن حتى وإن أخذا شهادة، هل بربكِ كل من معه شهادة يجد عملًا بتلك السهولة التي تظنينها؟!

سقط بيدي وشعرت الدنيا تزداد سوادًا بعيني، قلت بسخط: ألا يوجد بقلبكِ شيئًا من الرحمة؟ لمَ تفعلين هذا بي؟!

اتسعت عيناها وصاحت بهدر: أفهمي يابنت، الدنيا هي من علمتني القسوة.

أخذت أنفاسها تتسارع وهي تتحدث: لقد مات أبوكِ بين يدي أمام المشفى التي كانت سرائرهم ممتلئة، لم أستطع أن أحميه، لم أستطع أن أذهب به إلى مشفى خاص لضيق اليد.

مالت بجزعها للأمام وكأنما تود اختراق سور عينيّ: وحين مات دفنته بمقابر الصدقات، حتى المقابر يارضا لا نملكها.

اختنق صدري، واحترق قلبي ألمًا، كانت تعلم أن سيرة أبي تمزق صدري إربًا إربًا، ومع هذا أصرت أن تكوي فؤادي بنيران الوجع، قلت من وراء دموعي المتحجرة: أكرهكِ.

مالت بجزعها مرة أخرى للوراء وعلى وجهها ابتسامة مرة: هذا جيد، أنتِ مثلي يارضا، تقولين أنني قاسية ولكنكَ أيضًا مثلي تماما. لقد تعمدت زرع القسوة بقلوبكم، ماذا إن كانت قلوبكم حية؟ ماذا إن لم يمت قلبي أنا مع موت والدك؟! هل كنت لأقدر أن أحيا لكم؟!

قلت بينما الأسوار التي بنيتها لدموعي قد إنهارت، وخرج صوتي باكيًا: أنتِ تكذبين، كنت أسمعكِ كل يوم تبكين ليلًا، كنت أرى وسادتكِ كل صباح مبلبلة بالدمع، أنتِ هشه أمي وضعيفة بعكس ماتظهرينه لنا.

طفرت بعيناها الدموع وكانت المرة الأولى التي أراها، فانسحبت أنفاسي وأنا أنظر إليها غير مصدقة، ولكن صوتها لم يتخلى عن جموده وهي تعلق: فليكن! ولكن لا أظهر ضعفي لمخلوق، وأنتِ أيضًا يارضا ستكونين كذلك.

قامت من أريكتها بضعف وجلست جواري، وبينما تنظر لعيني بعيونها اللامعة إثر دموعها:

علمي أخوتكِ التجلد يارضا، لا تعلميهم الانحناء والضعف أبدًا، كوني لهم السند دون أن يشعروا، كوني قاسية كي لا يتعودون على الحب فتُكسر قلوبهم حين ترحلين.

أُعتصر قلبي مع جملتها، كانت نبرتها مخيفة لقلبي، تمنيت لو أن مافهمته كان كذبًا أو بضع خرافات، سألتها بترقب: لمَ تقولين هذا الكلام؟!

صمتت وبلغني حديث صمتها، فمات قلبي تمامًا مثلما مات قلبها بعد وفاة أبي!

"لقد أعلمتُ مصعب بالأمر"

قالها جميل وهو يحارب طيف دمعة ظهرت بمقلتيه، أعلم أنه حزين لحالي وليس لفقدان أمي، فهو بطبيعة الحال كان قليل الاحتكاك بها، سألته وأنا أعلم الجواب مسبقًا: ماذا كانت ردة فعله؟

تنهدت بحرارة وألم لحال صديقه وهو يقول: أغلق بوجهي الهاتف وحين هاتفته مرة أخرى كان صاحب الهاتف هو من أجاب وأخبرني أن مصعب هرب من أمامهم دون أن يفهموا شيئًا.

اختلج قلبي وأنا أرى جسد أمي المواري خلف رداء أبيض يُدفن مصاحبًا بعويل نساء لم أرهم من قبل، تساءلت إن كان مصعب قد بكى حرقة لفراق أمي، أم تراه لم يذرف دمعة واحدة مثلي؟!

أنا التي كنت أوقظ أمي وأنا على يقين من أنني سأجد روحها قد فارقت جسدها، كانت نظراتي تتابع التراب وهو ينهال فوق جسدها، وأتساءل هل أصبحتُ جامدة المشاعر مثلها؟ هل ما قالته بشأن كوني أشبهها صحيح؟ ولكن ما جذب تعجبي هو كوني مشتاقة لمصعب لا لأمي!!

****

وكأني أحمل جبلًا من الألم داخل صدري، كنت مثقلة الجسد، متعبة الروح، تائهة إلي حد كبير رجعت للبيت بعد أن جلست أمام قبر أمي وجميل على مقربة مني بعد أن رفض الذهاب خوفًا عليّ، لا أدري لمَ فعلت هذا إذ بقيت صامته وكأني مازلت أهاب أمي حتى بعد موتها، لم يقطع صمتي سوى سؤال خرج بنبرة مكلومة تلاشت في الهواء قبل أن أتلقى الإجابة " لمَ لا أبكي لفراقكِ ياأمي؟! ألهذه الدرجة زرعتي بداخلي أن البكاء ضعف!! "

استرعاني ما شاهدته داخل غرفتنا، قُبض قلبي حين وجدته مكتظًا بنساء متشحات بسواد جعل معدتي تنقبض، صحت فيهن بلهع أن يخرجوا، تتابعن في الخروج وكلمات المواساة تنزل على رأسي كنيران تزيد التهاب جسدي وتكويه، ما إن خرجن حتى دلف جميل مُلتاعًا وبخوف سألني: ماذا هنالك يارضا؟

تجاهلت سؤاله وصرخت به كالممسوسة: لا يوجد بي شيئًا أنا قوية كالجبل جميل هل تفهم؟ قوية كالجبل.

كانت ملامحه مرسومه بالقلق، مما جعلني أتيقن أن حالتي ليست أبدًا على مايرام، سألته بنبرة أعلى وأكثر قسوة: أين ذهبت بأخويّ؟!.

أجاب بنبرة مغلفة بالفزع: مع أمي بمنزلنا.

صرخت به وأنا أدفعه من صدره: إذن ما الذي تفعله هنا، أغرب من وجههي ولا تخطو هذا المنزل وأنا وحيدة فيه مرة أخرى.

دفعته على السلالم دفعًا تحت نظراته المأخوذة وعينيه المتسائلتين عمّا حلّ بي، ما إن خرج حتى إنهرت فوق أرض الغرفة أشهق بجنون، كانت أنفاسي حارقة لرئتيّ، تفاقم الألم بصدري وهاج فلم أعد قادرة على تحمله، فتحت فمي كي أصرخ متوجعة ولكن بدلا من ذلك كنت قد دخلت بنوبة بكاء حارة، أخذت أبكي كما لو أنها المرة

الأخيرة التي سأبكي فيها، كنت أسرق الهواء لرئتيّ من بين نشيجي المتواصل، إلى أن خارت قواي وبدأت عضلات جسدي تنتفض ألمًا، جففت دموعي وأنا أرى أمي تنظر إليّ شرزًا من فوق الأريكة فنهضت مسرعة أغسل وجهي بالماء فلم أجد، ندت عني لعنة لا أعلم من صاحبها، وبقلب خاو حملت الإناء كي أملأه من الصنبور العام، فتحت الباب وأنا أجفف دموعي فاصطدمت أنظاري بعيون جميل المرتاعة، مازال يقف أمام الباب وبخوف وقلق غلفا نبرة صوته: هل أنتِ بخير؟!

أدركت أنه سمع بكائي فانتابني الخجل، قلت وأنا أغلق الباب خلفي محاولة إخفاء نبرة البكاء من صوتي: نفد الماء وأود أن أملأ الإناء.

حمله من بين يدي وطلب مني أن أنتظره هنا لحين يملأه، ولكني أردت الهروب من شبح أمي فلم أُطق العودة للداخل وبدلًا من هذا ذهبت لعربة الشاي!!

لم أخرج برطمانات السكر والشاي وإنما جلست على مقعد الخشبي أخبر كل من يطلب الشاي أنه قد نفد، كانت دقائق التي استغرقها جميل قبل أن يأتي حامًلا إناء الماء، جلس على المقعد أمامي بوجه غريب، أدركت أن أمرًا جللًا يود الحديث بشأنه، شجعته على الحديث قائلة: جميل أنا أعرفكِ جيدًا، تود إخباري بشيء ما، أليس كذلك؟

فرك يديه بقلق تسرب بعضًا منه إليّ فسألته بفزع: هل حدث شيئًا لأخويّ؟

حرك رأسه نافيًا وأجاب كمن يجاهد: لا هما بخير ولكن أود الحديث بشأنك.

سعل قبل أن يجيب بنبرة أكثر إنخفاضًا: بشأننا..

توجس قلبي وتمنيت ألا يكون ما أفكر به واكتفيت بالنظر إليه أحثه على مواصلة حديثه، فاستأنف حديثه بنبرة مرتبكة: حسنًا إني أود الزواج منكِ، أعرف الوضع وأنكِ أصبحتِ بحاجة لرجل الآن..

قاطعته قبل أن يكمل: مصعب هو رجلي.

أسقط بيده وكأنه تفاجأ بردي الذي يحمل الرفض، واعتراني الحزن لشعوري بأني قد جرحته بفظاظتي: رضا في الحقيقة أنني بحاجة لكِ وليس العكس.

تألم قلبي لحاله، وغاص قلبي أكثر فأنا على يقين بحبه لي، بل وأكاد أجزم أني لن أجد شخصًا يحمل هذا الكم الهائل من الحنان مثله، ولكن المشكلة لديّ أنا، لم أستطع في أيما يوم أن أراه غير أخي، لست قادرة على حمل شيء من المشاعر تجاهه، وإن فعلت وتزوجته سأظلم كلانا، شحذت نفسي وقلت بنبرة جعلتها قاسية كي أنهي الحديث: ولكن أنا لست بحاجة لك يا جميل.

اختلجت ملامحه وإن لم يخف عني محاولاته في أن يظهر ثابتًا كي يخفي جرحه، فتوجع قلبي أكثر وهو يجيب: أعرفكِ جيدًا يارضا وأعلم أنك بحاجة ليد تربت على قلبك الدامي خلف هذا الرداء من الثبات، وإن كنتِ تظنين أنني أطلب لهذا لمجرد أنكِ بحاجة لشخص جوارك فتيقني أنكِ مخطئة..

نظر لأم عيني بعينين يملأها الحب وأكمل بنبرة جاءت لقلبي كالسوط: أحبكِ رضا.

أشحت بوجهي بعيدًا عنه كي أمنعه من رؤية دموعي التي جهلت سببها، أكان حزنًا لفراق أمي؟ أم شعوري أنه محق بكوني بحاجة لشخص جواري؟ أم يقيني بأني لن أجد من سيحمل لي في قلبه حبًا كهذا؟!

" جميل أنا لا أستطيع أن أرى بك سوى أخ ولا شيء غير هذا"

لم أتبين ملامحه وأثر كلامي عليه إذ لم أكن ناظرة إليه، ولكن شعور الخذلان قد تسرب بين ذرات الهواء بيننا ومس قلبي، وقف بينما يقول بصوت متماسك ولكنه يواري الكثير: ومازلت وسأظل أخوكِ يا رضا ومهما حدث سأظل جواركم.

قال جملته وهو يختفي من محيط ناظري بينما لم يختفي حزن قلبي، لمَ حظي دائمًا هكذا؟ لمَ دائمًا أحظى بالجانب السئ من كل شيء؟ حتى الرجل الذي أحبني بصدق، لا يحمل المواصفات التي أتمناها!

" مسكين هذا الجميل "

التفت لمصدر الصوت الأنثوي، لم أميز وجهها كما لم أستطع التعرف على صوتها، كانت إمرأة عجوز بوجه لا يوجد به مكان واحد بدون أن تغزوه التجاعيد، بدت مألوفة ولكن لم أستطع معرفة شخصها فسألتها: من أنتِ؟

"عزيزي القارئ، أظن أنه قد حان الوقت كي نترك واقعنا قليلًا عند عتبة الخيال"

****

من أنتِ؟

فتر ثغرها المشقق عن بسمة خفيفة، ودون أن تعير سؤالي أدنى اهتمام جلست على المقعد حيث كان يجلس جميل، تنهدَت بتعب بينما عيناها تحومان حول وجهي، وشيء ما بنظراتها كان غريبًا، شعرت وكأنها تحاول إيجاد شيئًا ما بين ملامحي، قالت بنبرة حانية لم تخلو من ارتعاش صوتها فأنبأني أنها بلغت من العمر ما يفوق توقعاتي: فلتُعدي لنا كوبين من الشاي يُسلي حديثنا.

غضن جبيني وأنا أجيبها بملل: نفد الشاي.

تسمرت نظراتها داخل مقلتاي، وكأنما روحي قد تعرت أمامها قالت بثقة: لم ينفد هيا أعدي لنا كوبين.

كالملسوعة أخرجت الشاي والسكر وبدأت في تنفيذ طلبها، نظرت لها بجانب عيني وشيئًا ما داخلي ينبؤني بأن هذه المرأة ليست بطبيعية، وجدتها تنظر إليّ بعيون مبتسمة وبرزانة وجهت لي الحديث: أيعقل كون جميل ليس بالغنى المطلوب سببًا كي ترفضي حبه الجارف؟ أليس من البديهي أن تتمسكي بحبه بدلًا من غبائكِ هذا الذي زرعته أمكِ بداخلكِ؟

التفت إليها بكامل جسدي، تملكتني الدهشة من حديثها الجرئ، وزاد سخطي من نعتها إياي بالغبية، صحت بوجهها وأنا أضع كوب الشاي أمامها بعصبية فانزلق بعضا منه حارقًا أصابعي: وما شأنكِ أنتِ؟ ثم من تكونين وكيف تعرفين أمي من الأساس؟

لم تتخلى عن هدوئها وهي تجيب برصانة أغاظتني: كل هذه الثورة لأن داخلكِ يعلم أنني على حق.

كانت واثقة لدرجة أثارت حنقي أكثر فسألتها بنبرة محتدة: أخبريني من أنتِ وكفاكِ فلسفة.

اتسعت ابتسامتها فكشفت عن أسنان صفراء متآكلة وأخرى فُقدت من زمن لا يعلمه إلا الله: لا يهم من أنا، ولكن ما يهم هو عرضي لكِ.

بلغني غموضها وشيء ما بعينيها كان يثير دهشتي، إذ كانت مألوفة لحد كبير وكأنني سبق ورأيت عيناها مع ملامح أخرى لشخص آخر، أكملت حين لم تجد مني جوابًا: ما رأيكِ أن أجعلكِ تعيشين حيوات أخرى بدلًا من هذه الحياة التي لا تنال رضاكِ؟!

قلت ساخرة: كيف هذا، هل أنتِ ساحرة وستنقلينني إلى عالم الخيال؟!

مالت بجسدها للوراء وهي تضحك بشدة، فاهتز جسدها النحيل بعنف، أنهت وصلة الضحك ونظرت لعيني بنظرات مبهمة أدركت أنها ستثني على خيالي الواسع أو تسخر منه، ولكني صُعقت حين جاء جوابها: شيء من هذا القبيل.

رفعت كوب الشاي نحو فمها وارتشفت منه بصوت مسموع، وقلت بنفاذ صبر: أنهي الشاي واذهبي منها، يبدو أنكِ امرأة مجنونة.

رفعت حاجبيها الناعمين بدهشة وبنظرة ماكرة سألتني: هل تظنين هذا حقًا؟

كان شيء ما بنظراتها الغامضة يثير فضولي، مكان ما بقلبي ينبؤني أنها ليست عادية ولكنها أبدًا ليست مجنونة، كانت عيناها المألوفتين تنظران إليّ بطريقة جعلتني أشعر أنني تحت تأثيرهما بشكل ما، أشحت عيني بعيدًا عنها بحنق، شحذت نفسًا كي أطردها مجددًا ولكني دُهشت حين سمعت نفسي أجيبها: كيف سيكون العرض؟!

رأيت ابتسامتها وهي تتسع شيئًا فشيئًا حتى بلغت أقصاها، تتبعتها بنظراتي وهي تخرج قلادة من جيبها وناولتها إياي معلقة بزهو: من خلال هذه القلادة.

قلبتها بين يدي وقد أُخذ نفسي بشكلها، كانت زرقاء اللون ففُتنت بها، على شكل دائرة صغيرة بدت وكأنها تتوهج من الداخل، رفعت رأسي أنظر للمرأة التي بدت مأخوذة بالقلادة هي الأخرى: هل تتوهج أم إنه يتوهم لي؟

قالت وهي تميل قليلًا ناحيتي وبنبرة منخفضة علقت كمن يفشي سرًا: إنها قلادة سحرية، مايتوجب عليكِ هو تخيل حياة ما بعينها قبل أن ترتديها، ثم تأخذك إلي تلك الحياة حين من الزمن إلى حين تقريرن أن تعودي لحياتكِ مجددًا، تقومين بنزعها.

- هل تظنين أني بلهاء إلى هذا الحد كي أصدق هذا الهراء؟!

اعتدت بجلستها وقالت بعد أن عادت نبرتها لسيرتها الأولى: بل أظن أنك لست بلهاء كي تفوّتي عرضًا كهذا.

- وإن كان كلامكِ صحيح فما المقابل إذن؟

لم تبرح عيناها عيناي بينما كانت ترتشف رشفة أخرى من الشاي، وبنبرة جعلت جسدي يهتز: لا أظن أن أحدًا يأخذ من نفسه مقابل!

انسحبت أنفاسي واتسعت عيناني دهشة، لقد كانت عيونها المألوفة هي عيناي، ولكن على وجه خط عليه الزمن علاماته!! وقفت مذعورة وأنا أدقق النظر بها محاولة تخيل ملامحها دون التجاعيد التي تكسوها فكانت أنا!!

سألتها بهلع: أنتِ هي أنا؟؟ كيف هذا ؟

أكملت بفزع وأنا أفكرك عيناي بعصبية شديدة: لا بد أنه مجرد تشابه أليس كذلك؟.

أجابت وهي ماتزال محافظة على هدوئها وابتسامتها الخفيفة: ليس تشابه.

علقت بصوت باكي: هل أنا أهذي؟!

تناول آخر رشفة من الشاي ووقفت بدورها أمامي، نظرت لأم عيني فسرت رعشة أخرى بجسدي، وبصوت ثابت قالت: حان وقت ذهابي الآن، القلادة معكِ فلتتحيني الوقت المناسب كي تستعملها،يمكنك استعمالها ثلاث مرات فقط وتذكري.

استأنفت حديثها وهي مشيرة نحوي بإصبعها: حين تودي إنهاء التجربة لأي سبب كان يجب أن تخلعيها في الحال تعودين إلي حيث كنتِ.

علقت بمرارة: لا أظن بأنني سأؤيد العودة.

ربتت على كتفي تحت نظراتي التائهة، وبثقة جعلت دهشتي تبلغ ذروتها: ستودين العودة.

تلاشت جملتها في الهواء بينما كانت تتلاشى من أمام ناظري بين السيارات، أنا على يقين من أنها هي أنا ولكن بملامح مسنة، وجسد عفا عليه الزمن، نظرت للقلادة بين أصابعي فوجدتها تتوهج، تُرى هل سأجد قلادة سحرية في المستقبل وأعود لنفسي كي أعرض عليها عرضًا كهذا كي أتيح لنفسي فرصة العيش بحياة أخرى؟!

جلست على الكرسي الخشبي والعالم يدور حولي، غزى رأسي صداع عنيف وأنا أتساءل" هل أثر موت أمي عليّ وجعلني أهذي؟!"

****

أجلس وحيدة على أرض الغرفة الرطبة، أضع رأسي الذي يكاد ينفجر إثر ما أصابه من نبضات صداع عنيف، نظرت بحنق للطعام الذي أعطاني إياه جميل أثناء عودتي، لا أعلم كيف تلقيته منه دون أدنى مقاومة، يزداد سخطي حين أتذكر وجهه المشدوه عندما رفضتُ الحديث إلى مصعب بالهاتف، أنّى لي بكل هذا الجحود؟! أعتصر رأسي بين يدي في محاولة فاشلة للسيطرة على الألم، أين كان وعيي حين رفضت الحديث مع مصعب؟ بل وكيف لم أعرج على أم جميل لأخذ أخويّ كما كنت أخطط؟ الأدهى من هذا وذاك أنني تقبلت الطعام من جميل كما لو أن عقلي كان في غفلة ما... جميل! إنه رائع حقًا بالرغم من معاملتي الفظة له وجرحه الذي رسمته بنفسي فوق جدران قلبه النقي إلا أنه مازال يهتم لأمري، لمَ لم يكتمل الجميل ويصير أكثر غنى؟ لمَ لم أكن بمستوى يجعلني مثيرة لأحد هؤلاء الشباب الغني؟!

نظرت بغتة حيث ألقيت القلادة وكأنني كنت قد نسيتها، التقطتها من فوق الأرض بلهفة وكلمات تلك العجوز التي تحمل من ملامحي الكثير تتردد داخل عقلي، وكالمسحورة أغمضت عيني أتمنى حياة مختلفة، حياة بعيدة كل البعد عن الفقر، حياة تجعلني بمستوى اجتماعى مرموق، يقع بحبي شاب لا يريد شيئًا إلا وقام بحله من ماله الخاص، شاب حياته لا تحتوي على مشكلات كالتي تواجه الفقراء.. ارتديت القلادة دون أن أفتح عيني، توجس قلبي وأنا أنتظر دون أن يحدث شيء، فتحت عيني وداخلي يسب نفسي ويسب تلك العجوز الشمطاء، ليقف قلبي وتخرج شهقة من بين شفتّي حين أجد نفسي داخل فندق فخم كالذي أراه على الجانب الآخر من الموقف حيث عملي، يجلس قبالتي شاب بدى وسيم لأبعد الحدود، نظرت

لنفسي بوجل وتأملت ذلك الفستان الوردي الذي أرتديه، مسحت عليه برفق كأنما أخشى عليه أن يتسخ من يداي ولكن أنفاسي توقفت حين وجدت أظافري مصبوغة بلون غريب لا أعرف اسمه.

" هيا يا ريناد ماذا بكِ فلتختاري ماتودين تناوله!!"

نظرت بغتة للماثل أمامي، وكأنها المرة الأولى التي أراه بها أخذت أدقق النظر بملامحه الوسيمة ، كان وجهه مستدير ذو بشرة بيضاء وعيون بنية أضافت له وسامة محببة للنفس، إذن هذا هو الغني الذي وقع بحبي، ولكن هل هو زوجي؟ ما اسمه؟!سألته بخفوت:

ما هو اسمك؟!

اعتلت الدهشة ملامحه، ثم مالبث أن ندّت عنه ضحكة قصيرة قبل أن يعلق: هل هذه لعبة جديدة أم ماذا؟

اعتدل في جلسة بطريقة مسرحية، ثم أردف مازحًا: أنا أحمد وأنتِ مااسمكِ يا ريناد؟!

نظرت له ببلاهة، لقد كان يمزح وعلمت أنه يتوجب عليّ الضحك ولكني لم أشعر بأيما مرح بشخصيته، اغتصبت ابتسامة فوق شفتيّ ولابد أنها ظهرت بأبشع شكل كان، ولكني تجاهلت سخريته وسألته ثانية: وهل نحن متزوجان؟!

انتفض جسدي حين ألقى الهاتف على الطاولة أمامه وبعصبية لم أفهم سببها أجاب: ها قد عندنا لنفس الأمر.

شعرت بالسخط من عصبيته وصوته العالي دون مبرر فصحت به: أمر ماذا؟ ولمَ الصراخ الآن؟

أغمض عينه بشدة وقد احتقن وجهه غضبًا، قال بنبرة من يحاول السيطرة على غضبه: هيا ريناد حبيبتي فلتختارين ماستتناولينه.

تجاهلته تمامًا ونظرت لقائمة الطعام أمامي، تملكتني الحيرة فأيًا من هذه المأكولات لم أرها بحياتي من قبل، كما أنني عجزت قراءة اسمائها التي كتبت بلغة كتلك التي يدرسها أخوتي بالمدرسة، ولكني تعجبت أيما عجب حين وجدت نفسي أجيب باسم

أكلة غريب على مسامعي، بل حتى أنني لم أفهم كيف نطق به لساني دون أن أتلعثم بالنطق، أشار أحمد للنادل وطلب منه مااخترناه ولم يخف عني عجرفته في المعاملة ونظرة التعالي بعينه للنادل، التفت إليّ النادل يسألني إن كنت أود شيئًا من الحلويات، هممت بالإجابة لكن أحمد سبقني وهو يجيبه بحدة: حديثك يكون معي أنا هل فهمت.

أومأ له النادل بإذعان فزاد حنق قلبي منه، انتظرت إلى حين ينصرف النادل ثم سألته بلوم:

لمَ تعاملت مع النادل المسكين بهذه الطريقة؟!

رفع وجهه وقد كان ينظر للهاتف ثم رماني بنظرة مندهشة، سألني باستهزاء وهو يرفع أحد حاجبيه:

وكيف يجب أن أعامله؟ هل يتوجب أخذه بالأحضان؟

ثار غضبي وقلدت نبرته الساخرة: لا بل عامله بآدمية أكثر .

غضن جبينه وهو يرمقني بغضب، لم يعري كلماتي أدنى اهتمام وانتقل ببصره للهاتف بيده كرة أخرى، شعرت بالغضب يموج داخل أحشائي لعدم رده وتصرفه كأنني هواء أمامه، ولكني تجاهلته ثانية وأنا أتأمل المكان والأوجه حولي، ما كل هذا البهاء! ابتسمت بجزل وأنا أرى بعض الشباب يضحكون على أحد الطاولات جوارنا، رسمت بخيالي أوجه إخوتي بدلًا عنهم، رأيت مصعب وهو يكور خده بالطعام فيضربه مدحت بخفة على خده الممتلئ مشاكسًا إياه ثم نغرق أنا وإيهاب بالضحك، ضحك قلبي لمجرد هذا التخيل فلمَ إذن يبخل علينا القدر بمثل هذه اللحظة.

"ريناااد!!!"

انسحب أنفاسي ونظرت بهلع لصاحب الصوت، هالني منظر وجهه الذي حال بياضه أحمر لشدة الغضب، وبعينين يموجان بالحنق سألني من بين أسنانه المطبقة: كيف تجرؤين على فعل شيء كهذا؟!

زممت شفتي وسألته باستنكار: فعلت ماذا؟

انتفضت حين ضرب الطاولة بيده، وبنبرة تقطر غضبًا أجاب: تبتسمين للشباب ويبتسمون لكِ.

نظرت حيث طاولتهم بتلقائية فاعتراني الخجل حين وجدتهم ينظرون ناحيتي ويبتسمون بالفعل. نظرت لأحمد الذي بلغ لديه الغضب ذروته، حاولت تخفيف حدة الموقف فقلت بصوت منخفض بينما جاء النادل بالطعام: لقد كنت شاردة وحسب. نظرت للطعام الذي وضعه النادل أمامي فزادت دهشتي حين تبينت أنها مكرونة مزينة بقطع من الفراخ، إذن ماهذا الاسم الذي نطق به لساني!

"نعم بالطبع شاردة بأوجه الشباب"

تجاهلت نبرته التهكمية واتهامه الذي وقف كالغصة بحلقي، فعلقت بينما أُمني نفسي أنها مجرد غيرة وجه ثاني للحب: هيا عزيزي لم يحدث شيء يستعدي الغضب، تناول طعامك.

كنت أشعر بنظراته الثائرة تخترق وجههي، ولكني لم أعره اهتمامًا ونظرت للشوكة والسكين أمامي، كانت معدتي تتقلص جوعًا وزاد من شهيتي رائحة الأكل، ولكن كيف سأستعمل الشوكة والسكين لم أستخدمهم من قبل؟! دفعني جوعي إلي المحاولة فالتقطت الشوكة واسترعاني أنني التقطتها بيدي اليسار وأمسكت السكين باليمنى!! هل كانت أمي تعلمنا الأكل بالطريقة الخاطئة!! أخذت يداي تعمل وكأنهما خارجين عن إرادتي، وبدأتا في تقطيع صدور الفراخ إلى قطع أصغر قبل أن ألقي بهم داخل فمي، ضحكت بينما وجدتني ألف المكرونة بخفة حول الشوكة فأتناولها بنهم، زاد ضحكي وأنا أتذكر كيف كنت أوسخ ملابسي حين أتناولها بالملعقة عاجزة عن التحكم بها. التهمت الطعام أمامي بسرعة شديدة إذ كنت أتضور جوعًا، نظرت لأحمد بعد أن انتهيت ووضعت الشوكة والسكين أمامي، فدق قلبي بخوف حين وجدته يرمقني بملامحه مكفهرة ولم يمس الطعام أمامه، سألت بنبرة مختلفة عني إذ كانت المرة الأولى التي أسمع بها صوتي خائفًا هكذا بل حتى أنني لم أشعر بهذا الخوف عند الشجار مع أمي: ماذا هنالك؟!

أجاب بحدة وهو يقف ساحبًا إياي من ذراعي بطريقة آلمتني: أود العودة هيا.

حاولت التملص من قبضته ولكن يده كانت أقوى من محاولاتي، ألقاني بعنف داخل سيارة وسرعان ماتخذ موضعه خلف موقد القيادة، كانت عيناه مثبتتان على الطريق أمامه وشعرت كأنني أرى ومضات الغضب المنبعثة منهما، لم يجرؤ أحد على التعامل معي بمثل هذه الفظاظة من قبل وددت لو أصرخ به وأسبه وألعنه ثم أزيّل توبيخي إياه بصفعة مدوية على وجهه، ولكني لم أفعل أيًا من هذا ولم أدري السبب، وبل وشعرت بأن فتاة غيري هي التي كانت تجلس منصاعة جواره دون أدنى حركة أو ردة فعل، أوقف السيارة بغتة فانتفض جسدي للأمام وحال دون اصطدامي بالزجاج حزام الأمام الذي لا أدري متى وضعته!! ارتجل من السيارة ونبض قلبي بخوف حقيقي حين فتح لي الباب وسحبني مرة أخرى من يدي، حينها حان الوقت كي أخلع القلادة ولكن خطواته المتسارعة وركضي خلفه كي أواطئ خطواته حالا دون هذا، دلفنا إلى شقة بدت جديدة الأثاث، ندت عني صرحة حين وجدت نفسي ملقاه فوق الأرض بعد أن صفعني، هممت بالوقوف كي أهجم عليه وأوقفه عند حده بلكمة مما عملني إياها مصعب وكنه باغتني حين التقط شعري بين يديه فصرخت بألم وهو يقول بصوت كالفحيح: تضحكين للشبان وأنا معكِ ياحقيرة، ماذا تفعلين إذن من وراء ظهري؟

كاد يسدد لي صفعة أخرى ولكني تملصت من بين بيديه بأعجوبة وهممت بضربه ولكن الفزع أملأ كياني حين وجدته يلوي ذراعي وكأنني نسيت تمامًا كل ما علمني إياه مصعب، كان يلوي ذراعي بيد ويمسك بشعري بيده الأخرى، فرفعت يدي الحرة بهلع وخلعت القلادة وأنا أصرخ وجعًا...

****

وجدت نفسي داخل الغرفة ملقاه على الأرض، مددت يدي بهلع أتفقد شعري فوجته محاطًا بالمنديل كمان كان، نهضت كالممسوسة وخرجت أغذ الخطى نحو بيت جميل، كان بصدري يعلو ويهبط بجنون، شعرت بأنني عائدة من الجحيم، أود احتضان أخويّ، أود شيئًا من الطمأنينة، أود رؤية جميل!!

" أهلا رضا حبيبتي فلتتفضلي"

قالتها أم جميل مشيرة لي بالدخول، دخلت بنظرات قلقة تحوم بكل مكان، كان منزلهم متوسط المساحة زُين بأثاث بسيط، لكن شيئًا من الدفء كان يجول

بأرجائه، فتحت فمي أسألها عن أخويّ وعيني تائهة تبحث عن جميل في أيما مكان، ولكن دقات قلبي النافرة عادت لسيرتها الطبيعية حين رأيت أحد الأبواب يفتح و ينبثق عنهما أخويّ راكضين نحوي بجزل، احتضنتهما بشدة وأنا أشتم منهما رحيق الأمان، أخرجتهما من أحضاني وأخذت أنهال فوق وجهيهما بوابل من القبلات وكأنني أُمني نفسي بوجودهما معي، سألني مدحت بفرحة عارمة: أختي هل ستظلين معنا؟

نبض قلبي بألم إثر نبرته المنتشية وحز بقلبي أن أكسر فرحته بأن أعيدهما معي للغرفة، التفت لأم جميل التي ربتت على كتفي قائلة: ادخلي معهما يارضا الغرفة لتتبادلوا الحديث بينكم.

نظرت إليها بامتنان وكادت تسيقنا للغرفة ولكن جاء صوت جميل ينادي أمه وهو يدلف من باب الشقة ببسمة تعلو ثغره حملت لقلبي كثير من الأمان، نظر بدهشة حين وجدتني ثم اقترب مني بفزع: جميلة أنتِ بخير؟ وجهكِ وكأن الدماء سحبت منه!!

ابتسم قلبي لاهتمامه، فأجبته أنني بخير، التفت لوالدته يطلب منها تحضير. الطعام لي ولكني رفضت باستماتة فانصاعا لرغبتي، أدخلني جميل للغرفة التي يجلس بها أخويّ وقال بملامح تنطق فرحًا، هيا إجلسي معهما قليلًا قبل أن أُدرسهما، تابعته وهو يخرج وإمتلأ قلبي بالامتنان لوجد شخص جميل مثله بحياتي، جلست على أحد السريرين ومدحت وإيهاب بجواري، قال لي إيهاب بتعجب ودهشة شديدين رافعًا كلا حاجبيه حتى كادا يصلان لمقدمة رأسه:

أختي هل تعلمين أننا نستطيع أن نستمع لصوت مصعب من خلال آلة صغيرة بهذا الحجم.

كان يشير بيده موضحًا لي حجم الهاتف، أردف متسائلًا: هل تعلمين كيف يحدث هذا؟ فلقد سألت المعلمة بالمدرسة وقالت لي أنكِ ستخبريني.

ضربه مدحت على رأسه وقال موبخًا إياه: أيها الغبي لقد كانت تسخر من رضا لأنها غير متعلمة.

أُعتصر قلبي ونزف وجعًا وأنا أنظر إليهما بحزن لحالها، فما ذنبهما كون أختهما جاهلة كي يقابلون بالسخرية ومن من؟ من معلمتهم!!

نظر إليّ إيهاب بأسف فدمى قلبي حين إعتذر قائلًا: لم أقصد أن أحزنكِ أختي، ولكن أنتِ بالفعل تجيبني على كل ما أطرحه لكِ.

أسقط بيدي فلم يكن يدري أنني في كثير من الأمور كنت أجيبه بأي شيء يخطر ببالي كي لا أظهر أمامه بمظر الجاهلة، وضعت يدي علي جيبي أتفقد القلادة فتنهدت براحة حين وجدتها مازالت موجودة..

خرجتُ من منزل جميل بعد أن تشرّب قلبي بجرعة من الطمأنينة، بيد أن جزءًا ما به كان منهكًا، كانت كلمات مدحت تتردد صداها بعقلي فيهبط تأثيرها كاويًا قلبي بنيران الفجع" أيها الغبي لقد كانت تسخر من رضا لأنها غير متعلمة."

أي قهر هذا الذي يجعلني أُندب حظي العثر حين حرمتني أمي من التعليم، فيأتي يوم أقف فيه أمام أخي أشعر بالخزي كفتاة سُلب منها حجاب رأسها على قارعة الطريق!!

دلفت للغرفة وأنا أمتص دمعة قهر ندت بعيني، جلست بتعب وكأني محملة بأعباء العالم أجمع، رأيت أمي تنظر إليّ من فوق الأريكة وبابتسامة هازئة وبختني: ألم أقل لكِ من قبل أنكِ رب هذا البيت؟ لمَ إذن تتركين أخويك عند أم جميل؟

أردفت بسخرية امتزجت بمرارة: أين عزة نفسكِ التي لطالما ملأتي أدمغتنا بها؟!

استندتُ برأسي على الجدار خلفي بإنهاك، وبصوت متعب لم أجتهد في أن أجعل نبرته أعلى فهي في طبيعة الحال ليست سوى شبحًا رسمه عقلي:

وضعت عزة النفس جانبًا الآن. أتعلمين لمَ؟

لأنني وبكل بساطة أرى أعينهم ولأول مرة قريرة، ونظرة مطمئنة لم أشاهدها تعلو وجوههم من قبل!

شحذت نفسًا عميقًا وكأنما أعيد ترتيب مايموج بصدري من تخبط وتوهان، وأردفت بأسى:

كما أنه لمَ عزة النفس وإن كنت مصدر سخرية سيلاقي بها أخويّ كثيرًا من العقبات.

اختنق صوتي وأنا أشعر بسخونة سائل لزج ينزلق من عيناي ليأخذ طريقه فوق خدي بصمت، أغمض عيني وكانت المرة الأولى التي لا أخجل بها من دموعي، على الرغم من شبح أمي الماثل أمامي يرميني بنظرات ساخطة.

لا أدري كيف غلبني النعاس ولكن صوت طرقات الباب جاء كناقوس ينقر فوق رأسي بعناد إلى أن اقتلعني من عالم الأحلام، نهضت أتكئ على الحائط خلفي بوهن، طلّ وجه جميل من وراء الباب فتسلل شعور غريب لقلبي، شعور وكأن روحي سكنت لرؤيته.

تنحنح للخلف فخرجت أنظر إليه بريبة ممزوجة بالترنح إذ ما كانت آثار النعاس تدور برأسي، قال وهو يمد يده بالهاتف نحوي: مصعب على الهاتف.

تناولت منه الهاتف بلهفة، وبصوت يتقطر شوقًا قلت: مصعب حبيبي!!

جاءني صوته متعبًا منهكًا كما لو أنه شاخ قبل أوانه: استوحشتكم أختي.

اختنق صدري ودق قلبي بعنف، كان بصوته بحة ألم أعرفها جيدًا ولكنها كانت مضاعفة هذه المرة

" كيف حالك" بخوف سألته وأنا أحتضن الهاتف بكلتا يدي وكأنما أحتضنه هو لا الهاتف.

" أسوء حال أختي، كنت أظن أن أمي زرعت بقلبي الشجاعة وبجسدي القوة، ظننت أنها انتزعت من قلبي الحزن، ولكن.."

تنهّد بحرقة بلغت حلقي؛ فاعتصرت عيني ألمًا لحاله، وأردف بأسى: منذ مجيئي إلى هنا وأنا لا أفعل شيئًا سوى أن أخضع بوجل، أخلو مع نفسي آخر اليوم وقلبي مكبل بالأحزان، لا أبكي بل حتى أنني لم أبكي لموتها إلى اليوم، ولكن روحي تئن حين أجد فارق المعاملة بيني وبين من هم أكثر تعليما ومكانة اجتماعية..

انقطع صوته وغلفني صمت مميت، نظرت للهاتف من ثم لجميل، كان وجهي متسائلًا فلم ينتظر حميل سؤالي إذ التقط الهاتف ونظر به عابسًا ثم أوضح:

لا بد أن أحدًا من الظباط اقترب منهم فأغلق الخط كي لا يرى أحد الهاتف.

ابتلعت غصة ألم بحلقي وسألته: كيف يعاملونهم بالجيش ياجميل؟ هل يفرقون في المعاملة بين متعلم ولا؟

حدق بوجهي لثواني، ثواني قليلة أدركت فيها أنه يأخذ قراره بالكذب، وبلعثمة أجاب: بالطبع لا الكل سواسية.

****

كانت مختلفة هذه المرة، وهجها بدا وكأنه خفت، قربتها من عيني كي أتأكد أنني لا أتوهم ولكنها كانت الحقيقة إذ قل وهجها بشكل ملحوظ، أغمضت عيني أتخيل حياة أكون فيها أكثر علمًا، ذو مكانة اجتماعية مرموقة، لا يحتاج أخواتي لشيء إلا وطلبوه مني، أكون مصدر فخر لهم أينما ذهبوا، وكالمرة السابقة ارتديت القلادة دون أن أفتح عيناي شحذت نفسًا أستعد به لما هو آت ثم فتحتهما ببطئ شديد..

&&&

متسلقة درجات سلم خشبي، كنت واثقة الخطى، حادة التفكير، يعيد رأسي معلوماته في تسلسل منظم، اعتليت المسرح أنظر للطلاب أمامي بثباث خارجي وداخلي، بأيدي خبيرة فتحت الحاسوب على المكتب أمامي، وحين أصبح الفصل ظاهرًا على شاشته، بدأت بإلقاء محاضرتي في علم النبات..

&&&

بينما كنت في طريقي لسيارتي السوداء القابعة أمام مبني الجامعة حتى قفز مصعب أمامي من العدم، بالرغم من الجمود الذي كان يتغلفني إلا أن قلبي قفز طربًا لدى رؤيته، كم كان جميلًا بقميصه الأبيض الذي طلت من خلاله عضلاته تضفي لجسده مظهرًا جذابًا، كان من البديهي أن أرتمي بحضنه، أخبره أنني سعيدة لرؤيته، لكن قلبي وقف حائرًا حين قلت له بنفاذ صبر: مصعب لمَ تأني إليّ كل حين والآخر، سبق وأن أخبرتك أن هذا مكان عملي والكل يحترمني هنا.

قال بتملق: ولمَ لا يحترمكِ الجميع وأنتِ أصغر دكتورة بالجامعة؟!

نال مديحه موضعًا حسنًا بقلبي فسألته بابتسامة لم أشعر بها حقيقية: ماذا تريد؟

قال بينما يسير جواري في طريقي للسيارة: أود أن أعرفكِ على هبة.

سألته ببرود وأنا ألج السيارة: من هبة.

بتذمر أجابني: ماذا بكِ يا أختى لقد حدثتكِ عنها مرارًا وتكرارًا، إنها الفتاة التي أود خطبتها.

نظرت له بلهفة، ونوعًا خاص من السعادة تمكن من قلبي، أخي مصعب يحب، قلبه يتحرك بجميل المشاعر!!

" حسنًا أحضرها مساءًا كي أتعرف إليها جيدًا على العشاء"

تملكتني الدهشة، جانبًا مني يريد أن يخرج من السيارة ويشاكسة، يضحك ويمزح معه، مصعب الصغير أصبح رجلًا يدق قلبه بالحب، ولكن ما نطق هذه الجملة المغلفة بالبرود كان جانبًا آخر مختلفًا عني، جانب أكثر برودًا وأقل مشاعر، هل هذا هو الوقار الذي يكون مصاحبًا للعلم!!

قبلني في الهواء قبل أن أنطلق بالسيارة وأنا أعلم وجهتي، كانت دقائق قليلة قبل أن تقف السيارة أمام أحد المنازل المحاطة بحديقة ليست بصغيرة المساحة، ارتجلت من السيارة وبخطى مدروسة وكأنني أُقدم عرضًا ما دلفت المنزل محاطة بتحية الخدم، إلتفت حولي وسألت: أين مدحت وإيهاب ألم يعودان من المدرسة بعد؟!

جاء صوت خادمة بدت مطيعة طيبة الملامح: إنهما في غرفة تدريس البيانو سيدتي.

انتزعت نظارتي الشمسية وتوجهت حيث كانا، وقف مدرسهم احترامًا لي، لم يلفت هذا شيئًا من تفكيري ولكن ما تعجب له عقلي هو كون مدحت وإيهاب وقفا بدورهما دون أن يتقدم إحداهما نحوي قيد أنملة، سألت المعلم عما آل إليه مستواهما قبل أن أتجه لغرفتي.

كانت المرة الأولى التي ألقي فيها جسدي فوق فراش ناعم الملمس، تركت العنان لجسدي كي يرتخي وهو يغوص داخل المرتبة الإسفنجية، وفي غياهب الظلام تاه عقلي.

****

فوق مائدة وثيرة من الطعام، جلسنا نحن الأربعة نتناول العشاء بنهم من جانبي، وارتباك من جانب مصعب وهبة، قطع الصمت صوت إيهاب المرتبك: أختي لقد حصلت على علامات سيئة في اختبار الرياضيات والمعلم يريد أن يذهب ولي أمري كي يتحدث معه.

رمقته بنظرات نارية، بينما لم تكف يداي عني تقطيع الطعام في الصحن أمامي بحركات أصبحت أكثر عصبية: ولمَ العلامات السيئة!! ألا تعلم أنك بهذا تسيء إلي سمعتي!!

انكمش إيهاب على نفسه حين احتد صوتي، بينما تألم جانب من قلبي حين رأيته يعض على شفتيه مانعًا نفسه من البكاء، ولكن سرعان ماتلاشى حزني وحل محله السخط حين جاء صوت مصعب المعترض: الأمر لا يستحق كل هذا الغضب أختي، كما أنكِ تعلمين أن إيهاب لا يحب الرياضيات.

إعتمل صدري بالغضب، وبهدر أجبته: لا يجوز، فالجميع بمدرسته يعلم أنه أخ للدكتورة رضا، ويجب أن يحصل على أعلى العلامات في جميع المواد كي لا يضعني بموقف كهذا.

قال مصعب محاولا السيطرة على زمام الأمور وقد بلغني حرجه أمام هبة التي بدت مضطربة تنظر إلى الصحن أمامها بوجل: حسنًا لا تقلقي نفسك سأذهب إليه أنا.

اكتفيت بالصمت ملقية بقطعة لحم داخل فمي، وأخذت ألوكها وأنا أحدق بهبة، بدت بسيطة للحد الجذّاب، شيء ما بملامحها يجعل الناظر إليها يعلم مدى نقائها، سألتها بينما أترك الشوكة والسكين أمامي عاقدة أصابعي كما لو أنني أستجوب طالبًا بإمتحان شفهي: ماهي دراستكِ ياهبة؟!

صُبغت وجنتيها بلون الدماء الفارة فيهما، تفاجأت بالسؤال فبدأت بالسعال وانتشرت الدماء بجميع أنحاء وجهها منتشرة من وجنتها، مد لها مصعب بكوب ماء قبل أن تجيب: أنا في كلية تجارة.

ارتفع حاجبيّ دهشة وأنا أنقل بصري بينها وبين مصعب قبل أن أسألها ثانية: هل تعلمين أن مصعب دكتور أطفال؟

بصوت خافت سمعته بالكاد أجابت: نعم.

أسندت ظهري للوراء وأردفت: كنت أود له طبيبة مثله ولكن لا يهم، ماهي وظيفة والدكِ؟!

نظرت بضيق ليديها وهي تطرقع أصابعها فبلغني توترها وضعف شخصيتها فلم يلق هذا شيئًا من استحساني: أبي عامل بأحد المصانع.

ماذا قالت؟ عامل؟ لا بد وأنها تمزح، هل يظن مصعب بأنني سأسمح أن أصاهر عاملًا، سألتها بلهجة أقرب للتقرير منها إلى الاستفهام:

تقصدين أن والدك لديه مصنع!

تململ مصعب بجلسته وظهر الضيق على ملامح هبة بدلًا من التوتر، رأيتها وهي تبتلع ريقها قبل أن تجيب بحدة مشددة على كل كلمة: لا بل هو عامل بالمصنع.

بتعالي لم أحاول إخفاؤه: وهل يعلم والدكِ أنكِ تودين مصاهرة دكتورة بالجامعة!!

" أختي!!!" إلتفت لمصعب الذي صاح باحتجاج فكانت عيناه تومضان بنيران الغضب، كدت أنهره لكن هبة وقفت فجأة وبأعين حال بياضها أحمرًا وغزتهما الدموع، قالت بصوت إتضح من نبرته محاولاتها الفاشلة في جعله ثابتًا:

أنا لا أخفي شيئًا عن أبي، علاوة أنه أخاكِ من يريد مصاهرتنا وليس العكس، ولكني معترفة بأنني هي من أذنبتُ بحق نفسي حين وافقت مصعب على القدوم إلى هنا.

بترت جملتها الدموع التي انهمرت على وجنتيها قبل أن تعدو من أمامي يتبعها مصعب، رأيت شخصيتها الهشة، وهو ماجعلني أتيقن أن ذهابها هو الحل السليم، هذا غير عمل والدها الذي لا يمتلك أي مكانة اجتماعية.

"لمَ فعلتي هذا؟"

إلتفت إلي مدحت الذي تغضن وجهه، وأجبته كما لو كان رجلًا بالغًا: لأنها ليست من مستوانا الاجتماعي أخي.

دُهشت حين فاجأني بجواب رجل بالغ: ولكن مصعب يحبها ولا يوجد شيء أهم من هذا.

غادر بوجه غاضب وتبعه إيهاب قبل أن يعلق بملامح ساخطة: أنتِ تكرهيننا ولا تحبين الخير سوى لنفسك فقط، أنتِ أكبر أنانية عرفتها بحياتي.

تتبعتهما بنظرات هلعة، ندت دمعة كبحتها بمهدها وأنا أحملق بهما، هل حقا قال أنني أكرههم، أيظن هذا بالفعل!!

" هل أنتِ مرتاحة الآن؟"

إلتفتُ بكامل جسدي لتلتقي نظراتي بنظرات مصعب التي بلغني لهيب سخطها، ونيران حنقها، نهضت أواجهه بمزيج بين الشفقة والحزن لحاله، بصوت حمل نبرة الرجاء: أرجوكِ يامصعب فلتضع قلبك جانبًا الآن ولتتفهم وجهة نظري.

ارتعت جسدي وانسحبت أنفاسي حين صاح بغضب هادر: أية وجهة نظر التي تجعلكِ بهذا الجحود؟ كيف لكِ أن تُهيني الفتاة بهذه الطريقة وهي بمنزلنا؟

قلت كمن يدافع عن نفسه أمام قاضي بمحكمة بدت مُنتهية: لقد أردتُ أن أوضح لها الفرق الاجتماعي، يامصعب أنا أريد لك زوجة تتشرف بمكانتها ومكانة والدها بالمجتمع.

تراجعت للخلف بفزع، واتسعت عيناي بدهشة حين أبصرته يرمي مقعدًا على الأرض أمامه، كانت كل خلجة من خلجاته تنتفض غضبًا، قال بينما عرق خلف أذنه ينبض من شدة الإنفعال: أنتِ لا تردين شيئًا لنا، لا تفكرين بنا على الإطلاق، مايهم لديك هو نفسك ومكانتكِ بالمجتمع فحسب..

صرخت به وقد كانت كلماته القاسية تدمي قلبي: أريدكم أن تفخروا بي وحسب.

تأملني للحظات قبل أن يجيب بمرارة: ومن قال أننا لا نفتخر بكِ، ولكن حتى هذا أنتِ تودينه لنفسك. أصبحتِ مغرورة فجأة وأنانية إلي أبعد الحدود.

أكمل بصوت كالفحيح: حتى مدحت المسكين لم تهتمين بعلاماته بقدر اهتمامك بمنزلتكِ وماسيقوله المدرسون حين تذهبين إليه المدرسة. أليس كذلك؟

خارت قواي وشعرت بالضعف يدب بقدماي، جلست مرة أخرى بألم لم أستطع تمييز أكان لسبب قسوة حديثه، أم لأنه أظهر قبح روحي؟!

أكمل كأنما ينفث مابقي لديه من غضب: أحيانًا أتمنى لو أنكِ كنتِ أختًا عادية، لا تفكرين بهوس المكانة والرونق الاجتماعي، أنتِ أنانية أختي أنانية.

أنهى حديثه المحموم، وبسخط مغلف بالحزن خرج من المنزل وكأنما سُحبت روحي مع خروجه، تأملت المنزل حولي بأعين دامعة وقلب دامي، كان راقيًا وجميلًا ولكنه يخلو من الحب، يخلو من الحنان، يخلو تمامًا من المشاعر كما أصبح قلبي خاويًا.

أردتُ أن يفخر بي أخوتي ولكني أبدًا لا أريد حبهم لي يقل، تمنيت العلم ولكن سحقًا لعلم لا يزيد صاحبه إلا غرورًا، تسللت يدي برهبة نحو القلادة التي تحيط عنقي، أحطها بقبضتي وكلمات أخوتي تتقافز برأسي: تكرهيننا..أنانية..، لا تحبين سوى نفسك... أنتِ أنانية أختي أنانية..

أغمض عيني بشدة وكأنما أنتزع تلك الصفات مني كنت أشد القلادة بعنف...

مضطربة الخافق، وجلة الأنفاس توجهت حيث عملي، عربة الشاي وليست الجامعة، جال بخاطري أنني هنا محبوبة، ينظر إليّ الجميع بإحترام، شخصيتي ليست باجتماعية على النحو المطلوب ولكن لي من العلاقات مايكفي حاجتي، كنت أُعد الأكواب وأنا أعقد عزمي على الذهاب لأم جميل وأخذ أخوتي بعد أن أشكر جميل صنعها، وأعطيها ما سأجمعه اليوم من مال إزاء ما استهلكته من أكل ومشرب لأجلهما، على الرغم من يقيني بأنها لابد وقد أنفقت الكثير مما يفوق الذي سأجنيه اليوم، تألم قلبي لهذا الخاطر ولكني انصرفت عنه وبدأت أفكر في الحياة الثالثة التي لابد وأن أختارها، أخرجت يدي من جيبي ممسكة بالقلادة فزاد عزمي على التريث قليلًا قبل أن أجربها للمرة الأخيرة حين أبصرت وهجها الذي خفت بشكل ملحوظ حتى كاد أن يختفى، وقع في نفسي أنها لابد وأن تنطفئ تمامًا حين يتوقف عملها..

****

وقفت أمام باب منزلهم بجسد مضطرب، وأنفاس متقطعة، شحذت نفسًا محاولة تهدئة خفقات قلبي التي لا أعلم لها مبررًا، طرقت الباب وداخلي يتوجس أن يكون جميل هو القادم لفتحه، بالرغم من أنني تعمدت القدوم متأخرًا كي أراه بعد انتهاء عمله كأستاذ بالمدرسة!!

ارتعد جسدي وانقطعت أنفاسي حين أبصرته خلف الباب، ينظر إليّ نظرة تشي بالكثير، كانت عيناه تضحكان وكأن جزل فؤاده ينتشر في الجو فأصابني بشيء منه لأجد نفسي سعيدة لرؤيته.

" تفضلي يارضا تفضلي"

جاءت أم جميل مهرولة حين أبصرتني، وكزت جميل الذي لم ينطق بحرف معاتبة إياه لتركي دون دعوة للدخول، استشعرت البشر بوجهها، والسعادة بصوتها، أعلم أنها تحبني ولكن لا أعلم لمَ كانت هذا المرة الأولى التي يشعر قلبي بهذا!

دلفت منزلهم وكالمرة الأولى أقبل أخويّ يهرولان نحوي بسعادة ضحك لها قلبي، واستكانت على إثرها روحي، احتضنتهما بشدة حتى كادا يختنقان، وكأنني أود الاعتذار لهما عن سلوكي داخل حياة لن أقبل بها أنا!

"أود أخذكما معي، لقد مللت الحياة دونكما"

بقلب راجي، وأعين قلقة أنظر أنظر لهما وداخلي على يقين بأنني سأدخل في نقاش طويل معهما إذ أبدًا لن يفضلا العيش معي بالغرفة على هذا المنزل الفخم بالنسبة لها..

"نحن أيضًا اشتقنا لكِ كثيرًا أختي"

هممت بالدفاع عن نفسي، ولكن جملتي بُترت حين تنبه عقلي لجملة إيهاب، نظرت إليه بكل حواسي مندهشة، لم أكن لأتوقع هذا الرد، وكأنما لا أثق بحواسي سألته بترقب لأتأكد مما سمعته للتو: إيهاب حبيبي ماذا قلت؟

قال بصوت عذب وملامح دائمًا ماكانت لقلبي حياته، وأعين صافية وددت لو أنهال عليه بالقبل حين قالها مرة ثانية، جذبتهما مرة ثانية داخل حضني، بصوت حمل كل الاشتياق: وأنا أيضًا اشتقت إليكما كثيرًا.

جاء معنا جميل بعد أن رفض بإستماتة تركنا نعود بمفردنا كما قال، على الرغم من يقينه بأن أحدًا ما لن يعترض طريقي، إنصعت لرغبته لا لشيء سوى لأني استأنست بنفسي رغبة بالبقاء معه لفترة أطول، كنا نسير جنبًا لجنب يسبقنا مدحت وإيهاب، شعور غريب اجتاحني وبلغ قلبي فاستكان لقربه، وكأن صمته يحتويني

صمتُ بدوري، تنهدت بحيرة وأنا أفكر به وبجميل أخلاقه، لابد وأنه ورثها من والدته، ندّت شفتي عن بسمة حين جالت كلماتها بعقلي " أنتِ ابنتي يارضا تماما كجميل، وإخوتكِ أولادي، هل تُحاسب الأم على ما أنفقته من مال على أبنائها يابنتي؟!"

اتسعت ابتسامتي وأنا أشعر بمدى بلاهتي حين أجبتها بأن أمي كانت تأخذ مني المال بعين الرضا، وكأنما تُحادث طفلًا صغيرًا أجابت بتروٍ: ولكن والدتكِ كانت تحتاج لهذا المال حبيبتي أما نحن فجميل هو من يصرف على هذا البيت، ولا يتسنى له أن يأخذ من أخته المال، هل فهمتي؟"

إلتفت إليّ جميل حين بلغنا الغرفة، وبملامح متسائلة علق: هذه المرة الأولى التي أراكِ فيها شاردة.

دلف أخوتي ما إن فتحت الباب يتشاكسان سويًا داخل الغرفة، وجهت تركزي لجميل وعرضت عليه الولوج، ظهرت على وجهه إمارات الرفض فعصفت بذهني صورتي حين صرخت به بعد موت أمي ألا يدخل هذا المنزل وأنا به وحدي، فعالجته قبل أن يخرج رفضه ملفوظًا: هيا جميل أخوتي معي وسأترك الباب مفتوحًا.

بتوتر واضح، دلف وبوجه ظهرت عليه إمارات الندم قال: هل تحتاجين لشيء أحضره لكِ قبل أن أعود للمنزل .

أجبته ولم يفت عني عدم رغبته بالجلوس إذ ظل واقفًا: لا شكرًا لك فالطعام الذي جلبته لي آخر مرة مازال موجودًا.

بدهشة سألني: أنتِ لا تأكلين يارضا، أليس كذلك؟

لمست نبرة اهتمامه وترًا بقلبي، فابتسمت له وبدون مقدمات ألقيت عليه سؤال لم أخطط له: جميل كيف تراني؟!

حدقت عيناه المتفاجئة بملامحي، وكأنما لا يزال تحت تأثير الاندهاش أجاب بصوت خافت: أراكِ جميلة.

خفق قلبي بعنف، وهربت عيناي من نظراته وشعور غريب كنت أتعرف عليه لأول مرة بدأ يراودني، شعور وكأن وجنتاي تلتهبان، هل أشعر بالحرج؟ ومن جميل؟!

أخذت أصابعي تعبث بعباءتي وأنا أوضح له بصوت مهزوز: أقصد كيف ترى شخصيتي، وليس مظهري؟

زاد حرجي ما إن ألقيت سؤالي، وشعور أنني أؤكد رأيه بمظهري قد زادني خجلًا، فأردفت موضحة بنبرة حاولت جعلها خشنة كي لا يُفضح أمري: هل مثلًا تراني أنانية؟!

تراقصت بسمة ندية فوق شفتيه، لاحظت لمعة عينيه ما إن بدأ حديثه ولسبب خفيّ وقع قلبي بجمال عينيه، كانت صافية بشكل يثير في النفس الانتباه، كيف لم ألحظ جمال قسماته الشرقية من قبل؟! جاء صوته المخملي ليجذب انتباهي لحديثه: كيف تكونين أنانية يارضا بالله عليكِ؟ كيف تكون أخت جاهدت بكل قوتها ووقفت بكل ماتملك من قوة أمام والدتها كي تذهب بأخواتها للمدرسة؟ كيف لفتاة بدلًا من أن تفكر بحياتها الخاصة تبدأ بعمل أنشأته لنفسها كي تصرف عليهم؟

شحذ نفسًا وبنبرة منتشية أكمل وقد أسرّه الحديث: لا أستطيع أبدًا أن أمحو صورتكِ من مخيلتي حين كنتِ تهربين من والدتكِ حاملة لنا المثلجات التي تبتاعينها دون علمها فنلتهمها سويًا أنا وأنتِ ومصعب، وكنا نعلم أنها ستوبخنا لإهدار المال على شيء لا قيمة له بنظرها.

انتقلت إليّ عدوى الضحك من جميل فأصابتني وقد شاركته الضحك بجزل على ذكريات طفولة لا أظنها ستكون سعيدة لأي طفل آخر، أكمل بنبرة أكثر دفئًا: أذكر أول مرة بجلتكِ بها حين جئتي مصعب بمال يسير كان بالنسبة لكِ هو كل ماتملكينه، وعرضتي عليه بأعين متحمسة ونفس ثائرة بأن يشترك بأحد النوادي الفخمة بدلًا من نادي حارتنا المتواضع الذي تطوع ببنائه سكان الحي كي يصبح مجانًا لأبنائه، حينها تشاركنا أنا ومصعب الضحك أما أنتِ فقد لمت بكِ الهموم وكأن العالم أجمعه قد خسر بطلًا كأخيكِ. أخبريني رضا كيف لفتاة كهذه بأن تكون أنانية؟

أطلق سؤاله ولم يكن ينتظر ردًا، وقع مديحه بنفسي موضع الرضا، كانت المرة الأولى التي أراه يتحدث بهذا الحب الجارف بعينيه، شعور مختلف وجميل حين تعلم أن أحدًا يراك بكل هذا الجمال، شعور لذيذ بسعادة تُغلف قلبك وكأنما كانت له بمثابة درع حامي ضد هلاك العالم وبؤسه، أخذت أنفاسي لمعة عينه وهو يردف:

وبالمناسبة لا يوجد شك بأنكِ جميلة ولكن حين رميتي عليّ بسؤالكِ المفاجئ لم أجد لشخصيتكِ أفضل من صفة جميلة.

هنا تاهت أنفاسي لثواني، ولكن سرعان ما هدأت تحت وطأة نظرته الحانية، نظرته التي أضحت لقلبي كدقاته، وددت لو أن أقول له" أنت هو الجميل هنا"

ولكني لذت بالصمت، بينما تنبهت حواسي حين استأذن بالرحيل، سمحت له بإماءة صامتة، وبقلب هاجمه شيئًا من الحزن، أغلقت الباب خلفه وقلبي يتمنى لو طال بقاؤه، التفتُ لأخوتي وشعور الشوق يتفاقم لديّ وأنا أتمنى وجود مصعب بجوارهما، وضعت يدي على قلبي وكأنما أود أن أسأله عن هذا الشعور الجديد المُلم به، حزن دفين متوراي خلف كثير من سعادة ناقصة، بثها جميل داخل قلبي بحديثه، شعور بسعادة ناقصة لن تكتمل إلا ببقائه جواري، أنا حقًا وقعت بحب جميل!!

****

ممسكة بالقلادة التي خفت وهجها بشكل ملحوظ تمامًا كما خفُت تسرعي وحماسي للحياة القادمة، أمعنت النظر بأخويّ النائمين بسلام، لن أقحمهما بحياة أخرى، فعلاقتي بهما هكذا على أفضل حال، نظرت للقلادة بتحدي وكأنها بطريقة أو بأخرى تسخر من خياراتي الناقصة كل مرة، أغمض عيني بشدة عاقدة العزم على اختيار حياة مثالية هذه المرة، حياة أمتلك فيها أبًا وأمًا حنونين، وقدرًا كافٍ من التعليم، بالإضافة إلى خلو عاتقي من المسئوليات، تاه عقلي للحظة أردتُ أن أتمنى حبًا، ولكن قلبي رفض حبًا آخر غير حب جميل، شحذت نفسًا عميقًا وبحماس زاد مع تريثي في التمني، وداخلي على يقين بأن هذه المرة ستكون مختلفة وأكثر مثالية بالتأكيد.

&&&&&

جاهدت هذه المرة كي أُباعد مابين جفنيّ، نعاس غير مبرر كان يحتل كياني، تمكنت أخيرًا بفتح عيناي متجاهلة رغبتي الشديدة في الانجراف داخل عالم الأحلام،اعتدلت بجلستي أتأمل الغرفة حولي، شهقت حين وجدتها غرفة زهرية اللون مبهجة للنفس تمامًا كتلك الغرفة التي طالما حلمت بها، طار نعاسي وحل محله الفضول وبحماس

مُباغت نهضت من الفراش لأقف أمام المرآة التي تبتلع نصف الحائط، كانت نفس ملامحي، ولكنها زادت رقة وجمالًا إذ انسدل شعري بنعومة فوق ظهري متخذًا منه سندًا، أسبلت النظر لملامحي أكثر، هل أصبح شعري أثقل وأكثر نعومة؟ تحسست وجنتاي وأنا أرى بهما لون دماء زادت من حسني، أما عيناي فقد تحول لونهما للأخضر!!

انصرف ذهني لطرقات الباب قبل أن يُفتح وينبثق منه إمرأة بجسد ممتلئ وقع في نفسي بأنها الخادمة، قالت بصوت خافت: سيدتي لم أتوقع أن أجدكِ مستيقظة مبكرًا هكذا، ولكن هذا جيد فالسيد مروان ينتظركِ بالأسفل يقول بأنه أمر هام.

أدركت بطريقة ما أن مروان هذا يكون خطيبي، رفعت يدي بحركة تلقائية لأجد أصبعي مزين بحلقة من الذهب فتتأكد ظنوني، قلت بصوت ناعم: حسنًا أخبريه أنني قادمة حالما أرتدي ثيابي.

لم أكن لأتوقع أن يتطلب مني وقتًا هائلًا كي أختار فستانًا أرتديه، ووقتًا مضاعفًا كي أقف أمام المرآة وبمساحيق التجميل أُزيد ملامح وجهيي رونقًا ضاعف من بهاء طلتي، بيد أن الأمر لم يستهلك مني الكثير كي أختار حذاءًا يتناسب لونه الأبيض مع لون فستاني الرمادي.

بخفة هبطت درجات السلم إلي الطابق السفلي حيث ينتظرني مروان، دنوت من مجلسه أتطلع بفضول، تسمر جسدي وتملكتني الحيرة حين وجدتُ ملامح حميل تطلع إليّ بابتسامة واسعة، ناديت اسمه بتساؤل: مروان!!

رُسمت ابتسامة ساحرة على وجهه وكأنما خلق الابتسام له، قال بحبور: مليكة لقد وجدتُ لكِ عملًا.

ماجت الخيبة بصدري، وبلوم لم أُخفيه: يقول المرأ شيئًا عن سعادته لرؤيتي، أو يلقي التحية وهذا أضعف الإيمان.

ارتميت بيأس فوق الأريكة أحتضن وسادة بملامح عابسة، بصدر رحب جلس جواري وقد اتخذ وضع الدفاع عن نفسه، قال بينما حواسي تنتشي لشذى رحيق

فاح من ملابسه: أعذريني حبيبتي فالحماس أخذني، ثم إنكِ تعلمين كيف تكون سعادتي لرؤيتكِ.

كادت بسمة جزل تقفز فوق شفتيّ قبل أن أكبحها متسائلة: ولكن لمَ الحماس؟

عاد لصوته شغفه وهو يجيب: لقد وجدت لكِ عملًا بإحدى الصيدليات قريبة من هنا، وصديقي صيدلي مثلك يعمل بها سيساعدكِ بكل شيء.

اعتدلت أواجهه بكل جسدي، وخرج صوتي مضطربًا: لكن يامروان لمَ تُصر عليّ كي أبدأ عملًا ما؟ صدقني أنا هكذا سعيدة وعملي على موقع (الإنستغرام) يُسلي وقتي أيما تسلية.

فترت ابتسامته، واختفى شغفه ليحدق بي بعينين مندهشتين قبل أن يسأل بعتاب: ألم نتحدث بهذا الشأن من قبل واتفقنا على أن أجد لكِ عملًا ما؟

رسمتُ بسمة واسعة وبتملق أجبته بصوت زدتُ من رقته: مروان حبيبي لقد كان ذلك بوقت ما حين شعرت ملل عابر، أردت فقط حينها تجربة شيء مختلف ولكني الآن سعيدة بما أفعله.

بصوت مختنق فضح مايعتمر بصدره من نفاذ صبر: ما الذي تفعلينه يا مليكة بالله عليكِ.

ثار السخط بجسدي، وارتعدت أوصالي غضبًا فذهبت كل معالم الرقة من صوتي وأنا أدافع عن نفسي: أساعد الفتيات كي يهتمون بيشرتهن، أنفق أموالي كي أجرب كل منتجات العناية بالبشرة(skin care).

احتد صوتي أكثر وأنا أردف باستماتة تحت تحت نظراته المندهشة: بالإضافة إلى أنني أمضي الكثير والكثير من الوقت كي أبتاع ملابس معينة وأقضي وقتًا أكثر وأنا أحاول إلتقاط صورة جيدة وكل هذا لا لشيء سوى لأن أُهدى للفتيات أفكارًا مختلفة لارتداء ملابسهن.

رأيت ملامحه ترتسم بعلامات الاستياء، فحزن فؤادي وأردفت كمن يزيل عن نفسي تهمة ما: أعرف أنك ترى كل هذا ليس مهمًا ولكن هذا ما أجيده ويضفي على نفسي شيئًا من البهجة.

شحذ نفسًا عميقًا، أجاب ولم يَخفى عني محاولاته في إخفاء استيائه: أنتِ تعرفين رأيي وسبق أن تحدثنا في هذا الشأن، لم أقل أن ماتفهلينه ليس مهمًا بل أعرف أنكِ تساعدين كثيرًا من الفتيات، لكن من المنطقي ألا يكون هذا هو شغلكِ الشاغل وكل عملكِ علاوة على أنكِ تساعدين من هم ميسوري الحال ممن يقدرون على شراء هذه المنتجات ولكن لمَ لا تفكرين بطريقة أخرى وتستغلين شهادتكِ الجامعية وتنشئين صيدلية تساعدين من خلالها المحتاجين مثلًا لهذه المنتجات.

لا يرتاح خافقي لطريقته في النصح، كما أن عدم تقديره لما أفعل يثير جنوني، لا أرى داعي لأن أُتعب نفسي بعمل آخر فلمَ يصر هو على ذلك!! عقدت يدي أمام صدري بعزم وبعناد أجبته:

مروان أنا لست بحاجة لأن أفتح صيدليه، إضافة لأنني مرتاحة هكذا، هل لك أن تدعني لما أريد.

طفت بسمة على شفته جاهد بمرارة كي يظهرها وهو ماجعل حلقي يشعر بمرارتها، وأردف بصوت لم يخلو من الاستياء:

-بالطبع كما تشائين، ولكن ما أود أن تعلمينه هو أنني اجتهدت في البحث عن عمل لكِ لا لشيء سوى لأنني رأيتكِ غير راضية عما تنجزيه بحياتكِ.

كدتُ أن أدافع عن نفسي لكنه منعني بإشارة من يديه وأردف: ولكن يبدو أنه كما قلتي كانت مجرد فترة ملل وولت.

كانت البسمة تزين وجهه، بيد أن عيناه كانت تموج بخيبة أمل مسّت قلبي بالحزن، اختنقت أنفاسي فقد أدركت أنه لا يرى فائدة مما أبذل فيه كثيرًا من الجهد. وددتُ لو كان يفتخر بي وبمجالي، من قال أنه لا يجوز إضاعة كل وقتي به؟ من قال إن ما أفعله ليس مفيدًا من الأساس؟ بل من قال إنه يجب عليه أن يفخر بما أفعله إن كنتُ مقتنعة أنا؟ ضحكت بمرارة فأنا أعلم أن نظرة جميل لشخصي هي بالنسبة لي الأهم، كبحت دمعة أسى ندّت بمقلتي، والتفتت أنظارنا أنا ومروان إلى هذا القادم نحونا بوجه بشوش وقد وقع في نفسي أنه أبي وما إن رنا إلينا حتى ألقيت بنفسي داخل أحضانه، باغتني بقبلة في مقدمة رأسي وكالملسوعة إهتز جسدي على أثرها، دفء غريب سرى بكل خلية من خلايا جسدي وشعور رائع بالسكينة إحتل قلبي،

شحذت نفسًا لأنهل من رائحته التي تخللت داخل رئتي بعبق الأمان، أمان لم أشعر به من قبل وكأن العالم فجأة أصبح خلف هذا الجسد الذي يطوقني بحنان كسور يفصل بيني وبينه، جاء صوته حنونًا وهو يتنزعني من صدره: هيا مروان حبيبي لتتناول معنا الفطور.

ببسمة ودودة رفض عرضه بأدب متعللاً بتأخره على عمله، ودعني بنظرات حانية من ناحيته وقلب متألم من ناحيتي، يبدو الأمر معقدًا ولكنني وددت لو كانت نظراته الحانية نظرات فخر!!

****

سرت رعدة بجسدي، وتسمرت عيناي حين وجدت أمي تجلس إلى المائدة، كانت نفس ملامحها ولكن داخل ثياب أكثر رونقًا وشعر هذبته المكواة، كانت أصغر سنًا، أجمل طلة، وأكثر حنانًا يطفو على سطح عيناها، تنظر إليّ متعجبة من وقوفي فأشارت كي أتخذ موضعًا جانبها لأتناول الفطار، هاجمني الشوق دفعة واحدة وأدركت حينها فقط كم كنت بحاجة لرؤية هذه الملامح مرة أخرى قبلتها على جبينها قبل أن أجلس فبادلتني القبلة بقبلة مثلها ولكن أكثر دفئًا.

نظرت للطعام أمامي وهتفتُ بجزل" واو إنه فطور فخم"

قفزت بحماس أُخرج الهاتف من جيبي وألتقط للطعام أمامي العديد من الصور قبل أن أضعها على حائط صفحتي (بالإنسغرام) جلست أنظر بترقب ممزوج بشغف لزر الإشعارات أنتظر تفاعل المتابعين لدي، ولكنني وضعت الهاتف جانبي كي أشرع في تناول الطعام إنصياعًا لرغبة أمي الملحة وقرقرة معدتي الجائعة.

&&&

كنت بغرفتي -أضع مساحيق التجميل في بث مباشر انصياعًا لرغبة المتابعين- قبل أن تأتي الخادمة حاملة لطرد طلبته من موقع على الإنترنت قبل بضعة أيام، أغلقت الكاميرا بلهفة وبأيدي متسارعة بدأت أفتح الطرد كي أُعاين ما جاءني، ولكن أتى صوت هاتفي يقطع عليّ لحظتي المفضلة فتناولته بحنق لأجيب على وداد صديقتي: أرجوكِ وداد لا تحزني مني ولكن هاتفيني بوقت لاحق.

أتى صوتها يحمل مزيجًا من التعجب والقلق: ماذا هنالك يا مليكة؟

أجبتها بعجل: لا شيء سأخبركِ لاحقًا.

أغلقت الهاتف وبدأت في إلتقاط العديد من الصور للمنتجات أمامي، وبحماس شديد واشتياق لإعجاب الآخرين لما أقدمه لهم دائمًا من منتجات عرضتُ الصور على حائط صفحتي التي تحوي الآلاف بانتظار التعليقات المبهجة، أغلقت الحاسوب وبخفة تناولت الهاتف لأضرب رقم وداد قبل أن يأتيني صوتها: مليكة أخبريني ماذا هنالك لقد نهشني القلق؟؟

أجبتها بقلب منتشي وأنا أقلب علبة شامبو بيدي لأقرأ مكوناتها: لا تقلقي وداد إنه طرد منتجات العناية بالشعر قد وصلني أخيرًا.

تنهدت براحة لكنها سرعات ما صرخت بإعتراض: لقد أقلقتني كثيرًا لأجل هذا فقط وأغلقتِ الهاتف!

تجاهلت حنقها فوداد طيبة القلب أعلم أن غضبها لن يدوم طويلًا وباهتمام سألتها: أنتِ أخبريني ماكنتِ ستتحدثون بشأنه.

بهمة عالية بلغت روحي بعضًا منها أخذت تتحدث عن معرض للملابس ستشرف على بنائه للفقراء، وقد شاركها بالفكرة العديد من زملائنا الجامعيين، إمتلأ قلبي بالفخر لكونها صديقتي، وداد لا يوجد في مثل طيبة قلبها أحد، عرضت عليّ مساعدتها بتنظيمه ولكني أجبتها بأسى: يمكنني المشاركة ياوداد بالملابس، لكن أنتِ تعلمين أنني أجرب مرهمًا لعلاج الهالات السوداء حول العين ولا يمكنني التعرض للشمس هذه الأيام.

أجابني الصمت حتى كدت أظنها أغلقت الهاتف، ولكن نبرة صوتها المتعجبة بلغت مسامعي:

عن أية هالات سوداء تتحدثين يا مليكة؟!

وقع تعجبها من قلبي موقعًا حسنًا فسألتها بترقب:

لقد لاحظتِ أنها اختفت أليس كذلك؟؟ هذا المرهم وهمي التأثير.

صاحت بنام بنفاذ صبر: ما أقصده ياملیكة هو كيف لكِ أن تفضلين علاج هالاتكِ السوداء عن مساعدة غيركِ من الفقراء؟؟

اعتصر الحزن قلبي، فأنا لا أريد أن أكون سيئة بهذا القدر لا أمامها ولا أمام نفسي:

- ياوداد ليس الأمر كما تفهمين، فأنا أعرض نفسي لخطر التجربة كي أفيد الفتيات الأخريات بما تؤول إليه تجاربي.

تنهدت وداد وبنبرة أوحت بفقدها الأمل في تلقي المساعدة مني:

- كما تشائين مليكة.

أغلقت الهاتف معها وشعور مقيت يغزو قلبي، نظرت للهاتف بروح مضطربة، وعقل حائر، لمَ لم أتخلى عن تجربة المرهم لشيء أكثر فائدة؟ لمَ أصبحت باردة كهذا وأنا التي يجب أن أكون أكثر من يشعر بسعادة الفقراء حين يبتاعون شيئًا فخمًا بأقل الأثمان؟؟

هززت رأسي بعنف وكأني أنفض عنه خاطر أعلم أنه سيؤرق مضحعي، فتحت الحاسوب تلتهم عيناي التعليقات على الصور التي نشرتها، وانتقلت إلى صورك الإفطار التي نشرتها ببداية اليوم، نزف قلبي وجعًا وخرج أنين غير مسموع من روحي المكلومة حين وقع بصري على أحد التعليقات

" حسنًا وما الذي استفدته الآن من هذه الصورة سوى أن بلغ جوعي أقصاه!! حقًا أحقد عليكِ بكل كياني، ومن أعماق قلبي أسخط على هذه الروح غير المبالية التي تسكن بين جنباتك، كيف لكِ بأن تكوني بهذا الخلو، حياتكِ ليست سوى مزيج مقرف من التنزه وصور وأكل وفقط.. أنتِ حقًا خاوية"

تركت العنان لدموعي وأنا أنظر بخافق مكلوم للتعليق ولاسم صاحبه، كانت فتاة فهمت من حديثها بأنها أصبحت أكثر جوعًا بسببي، شهقت بضعف وأنا أمسح دموعي المنهمرة فتزيد قلبي وجعًا، كيف لشخص أن يحمل كل هذا الكره تجاهي، بل كيف لنفسي أن تكون بكل هذا العمى!!

هاتفت مروان الذي تفشى به الهلع ما إن سمع بكائي، وبظرف دقائق كان بالمنزل ينتظرني بخوف فج، احتضنتي نظراته القلقة قبل أن يسألني وأنا أرنو تجاهه: أخبريني ما حدث لم أستطع سماعكِ جيدًا بالهاتف؟

ما إن بدأت أقص عليه حتى أنهالت دموعي بغذارة شديدة، تعلقت أنظاري به بعد أن إنتهى مني الحديث، أنتظر أن يهدئ روحي، ويسعد قلبي ببعض الكلمات المواسية.

قابلني سقيع مميت تجمدت له أطرافي حين رمى بكل توقعاتي عرض الحائط وهو يعلق: أنتِ حزينة ياماليكة لأنها محقة بكلماتها.

شدّد على يدي بحنو زاد سخطي فانتزعت يدي من بين يديه وهو يردف: ألم تفكري ولو للحظة ماذا سيستفيد الآخرون حين يعلمون ماتناولتيه على الفطور؟

أشحت بوجههي عنه غضن جبيني وأنا أقول بقلة حيلة: لم أفكر بأي من هذا؟

مال نحوي قليلًا وكأنما يهدهد طفلًا علق: يجب أن تفكري بغيرك ياماليكة قليلًا، كما أنه ليس الجميع ميسوري الحال مثلك فيجب أن تضعي لهم حسابنا وتهمتين قليلًا لمشاعرهم.

دق خافقي دقة رعب، شاهدت بعينه نظرة خاوية نظرة لا تحمل من نظرات جميل شيئًا، ارتجف جسدي بخوف وأنا أحدق بعينيه باحثة عن نظرة الوقار بعين جميل فلم أجدها، وكأن أحدهم إنتزع جميل من روح مروان عنوة وقفت بهلع وكالمجنونة صحت به: أنت لا تقدرني، تراني شخصية عادية.

وقف بدوره في مواجهتي دافع عن نفسه: أنا فقط لا أريد لحياتك أن تكون على هذا القدر من ال ..

تردد قليلًا قبل أن يسترسل: التفاهة لم لا تكن الحياة الافتراضية شيئًا جانبيًا لعمل تتقنيه. لمَ لا تستغلين وقتكِ بشيء أكثر فائدة يضفي لعقلكِ شيئًا من الخبرة.

وكأن سهام كلماته أصابت أضعف مكان بقلبي فخر صريعًا إثر ما ألّم به من وجع، قلت بصوت مختنق من وراء غلالة الدموع بعيني:

لا أُحبز أن أكمل حياتي مع رجل يراني خاوية.

نطق بها لساني وتمنى عقلي لو يتشبث بي، يصيح بأعلى صوته لستِ أبدًا خاوية، إشتقت لنظرة التبجيل بعينه وهذا أعظم ما تمنيته. انسحبت أنفاسي وضاق صدري حد الاختناق حين أبصرت صورته من خلف غلالة الدموع وهو يولي مدبرًا بعيدًا عني، خارت قدماي فهربت بضعف وعيناي لا تبرحان الباب حيث خرج، أنتظر

ولوجه مرة أخرى وبنظرة تقدير يخبرني أنه يهيم بي عشقًا ولا يقدر على العيش بدوني، طال انتظاري وزاد ألم قلبي حد الموت دون أن يعود مجددًا، شهقت بضعف وأنا أتذكر كلمات جميل وكأنها منذ أمد مديد

"وبالمناسبة لا يوجد شك بأنكِ جميلة ولكن حين رميتي عليّ بسؤالكِ المفاجئ لم أجد لشخصيتكِ أفضل من صفة جميلة."

اعتصرت عيني بندم وقد أدركت أنني بهذه الحياة أخسر حبًا لن يعود وشخصية تستحق الإحترام ودونما أي تردد عرفت يدي طريقها نحو القلادة لتنتزعها باشتياق لحياتي.. لنفسي.. لإخوتي.. والأهم لجميل..

"للعثور على السعادة، يجب اختبار التعاسة.

إذا أردت أن تكون سعيدًا، ليس عليك أن تسعى إلى الفرار أمام التعاسة بأي ثمن، عليك بالأحرى أن تفتش كيف _ وبفضل من _ ستتمكن من تجاوزها. "

بوريس سيريلنيك

تحفزت حواسي لهذا الصوت القريب البعيد، أسمع اسمي يتردد صداه محمولًا على نبرة وجلة، ارتعد قلبي لها، اهتز جسدي بعنف بينما كنت أُباعد مابين جفنيّ بصعوبة وكأنني أنتزع نفسي من دوامة كانت للهزيان أقرب، تطلع نحوي زوجان من العيون الفزعة، مرسومة بين ملامح مازالت محتفظة ببراءتها، ارتمى أحدهما يحتضنني بينما ظل الآخر يردد سؤاله بهلع " أختي هل أنتِ بخير؟ "

تلّبس قلبي بجزعهما، فاعتدلتُ بجلستي أنظر لملامحهما الوجلة وخرج صوتي خافتًا مبحوحًا من إثر بكاء في حياة أخرى بدت بعيدة كل البعد:

- مابالكما لمَ كل هذا القلق؟!

حدق إيهاب بي وتمكن قلبي من قراءة القلق المرسوم على وجهه قبل أن يقول:

- لقد ذهبنا للمدرسة وعدنا وأنتِ مازلتِ نائمة بعد.

مسحتُ على شعره بحنان، ووميض سعادة تسلل إلى قلبي -على وقع كلامته ونظراتهما القلقة- فأنار بجزل لما يراه من اهتمام أقرب الناس إليه.

- حبيبيّ هل ذهبتما دون تناول شيء من الطعام!

هز مدحت رأسه قبل أن يجيب:

- لقد أتى لنا جميل بالطعام في المدرسة حين أخبرناه بقلقنا عليكِ إذ كانت المرة الأولى التي لا تستيقظين فيها.

اجتاح قلبي خفقات مضطربة لدى سماع اسمه، وشعور مبهم باشتياق جارف احتّل قلبي دونما مقاومة منه، أنّى لي بكل هذا الاشتياق وقد كان معي قبل ساعات !!

خرج صوتي مضطربًا يحمل نبرة اشتياق لم يعرف لها قلبي معنى من قبل: وكيف حاله جميل؟

تكفل إيهاب عناء الرد: في الخارج ينتظر أن يطمئن عليكِ.

ارتعد جسدي إثر صقيع مفاجئ ألم به، جُن خافقي وبدأ يدق دقات سريعة متوالية وكأنما قد أعلن الحرب عليّ، جميل بالخارج ينتظر الاطمئنان عليّ، ابتسمت روحي حين ردد بهذا عقلي، قمت كالملسوعة ثم نظرت لهما وبحيرة لا أفهم لها سببًا

" ما الذي يجب عليّ فعله الآن؟!"

كان سؤالي يحمل معنى ماينبغي عليّ فعله كي لا أُضيع حب جميل من بين يداي، ما يجب فعله كي أحظى به سندًا في عالم أصبح فيه وجود قلب يحمل حبًا صافي ومخلص بالشيء المحال!

أجاب مدحت ببساطة: أخرجي له كي يطمئن.

وكأنما كنت بانتظار مثل هذا القول كي أندفع من الباب، انسحبت أنفاسي وقامت الحرب بقلبي مرة أخرى حين أبصرت جميل أمامي، ينظر إليّ بفم مبتسم وعيون حل فيها القلق محله، سألني باهتمام بلغ صميم فؤادي:

- أنتِ بخير أليس كذلك؟

ابتسم خافقي وهدأت ثورته لثواني، ثم عاد ليثور مرة أخرى وأنا أحاول جاهدة تجاهل الخجل وأخباره، أجاهد كي ينطق لساني بها، نظرت إلى عينه باشتياق غمر كياني، كانت نظرة عينه فقط تغلف قلبي بأمان حقيقي لم أشعر به سوى معه، قال لسان عقلي أخبريه بحبك الآن في حين نطق لساني: أنا موافقة يا جميل.

بدرت علامات عدم الفهم فوق محياه، ولكن سرعان ماتلاشات كي يحل محلها نظرة بلهاء وعيون جزلة

وقع في نفسي أنه فهم ولكن يخشى التصديق، اتسعت ابتسامتي ونظرت ليدي بخجل لا أعرفه بسيمائي، كان الصمت حليفه في البداية وما لبث أن جاءني صوته مضطربًا: هل أنتِ موافقة على الزواج بي؟

هلل أخويّ بجزل على مقربة منا، فنظرتُ إليهما واكتفيت بالضحك تحت نظرات جميل التي جمعت بين الفرح وعدم التصديق، ظلّ يحدق بي وكأنما ينتظر أن أغير كلامي بأيما لحظة، بلغ خجلي عنان السماء إذ ظل يحدق بي كثيرًا، فقلت بصوت حاولت جعله ثابتًا: حسنًا سأذهب أنا إلى العمل إلى حين تنتهي أنتِ من أن تستذكر لهما دروسهما.

هممت بالذهاب لكنه استوقفني بنظرة تُشع في الهواء طربًا بلغ روحي فانتشت: فلنتزوج اليوم إذًا.

لم أمنع ضحكتي وأجبته بصوت غريب عن مسامعي إذ كان صوتًا رقيقًا يختلف عن صوت رضا التي أعرفها: أريد أن يحضر مصعب الزفاف.

أومأ برأسه مؤيدًا وإمارات عدم التصديق مازالت متربصة بملامحه، أخذت أغذ الخطى كي أذهب للعمل ولكني عدت أناديه بعد عدة خطوات، فدنا مني متسائلًا: ماذا هل غيرتي رأيك؟

أجبته ولسان حالي يتساءل كيف كنت بكل هذا الجحود حين أردتُ تضييع حبًا كهذا من بين يدي!!

- أردت أن أسألك إن كنتُ سأستمر بعملي هذا بعد الزواج أم لا؟

أجاب دون تفكير: إن كنتِ تحبينه فلا بأس، ولكني أفضل أن ترتاحين بمنزلكِ فنحن لن نكون بحاجة له.

وكأنما أحاول إيجاد أية منفعة لعملي المتواضع:

- أنا لا أحبه على كل حال ولكن السائقون لا يجدون تسلية لهم سوى ما أعده من شاي.

فتر فمه عن ابتسامة رقيقة قبل أن يجيب بنظرة واثقة:

- لا تحملين همًا لشيء، اذهبي الآن لعملك.

****

بينما أعيد ترتيب أكواب الشاي أمامي كانت ملامح جميل الجزلة تحتل بعقلي الجانب الأكبر، تذكرت لهفته وهو يطلب أن نتزوج اليوم فطفت بسمة واسعة فوق شفتي لم أستطع كبحها.

" أحضري لنا كوبين من الشاي"

التفت بكامل جسدي لمصدر الصوت تملكتني الدهشة حين أبصرتها، أدركت أنها المرأة العجوز قبل أن أراها. كانت تنظر إليّ بابتسامة خفيفة وعيون متمردة، سألتني بكل ثقة العارف:

- هل خفّ وهج القلادة؟

وضعت يدي بتلقائية أخرجها من جيبي ووجدها منطفئة بالفعل، لم تنتظر مني جوابًا وقالت بينما تعتدل بمجلسها على المقعد أمامي:

- ألم أقل لكِ أنكِ ستعودين لحياتكِ مرة أخرى؟

خرجت من صمتي وسألتها بفضول:

- كيف عرفتي أن وهجها إنطفئ، هل جئتي لتأخذينها؟

هزت رأسها بعنف وقالت:

- لن آخذها فأنتِ ستحتاجينها مجددًا.

نظرتُ للقلادة بتعجب وسألتها:

ـ كيف هذا لقد خفُتَ وهجها تمامًا، بيد أني أصبحت مقتنعة بحياتي الآن أكثر من أي وقت مضى ولا أظن أنني سأود استعمالها كرة أخرى؟

ضحكت بجزل وهبطت من مقعدها فجأة، ثم نظرت لأم عيني وبجدية قالت:

ـ لن تكون أنتِ من سيستخدمها في المرة المقبلة، وما إن يحتاجها أحد ستجدين توهجها قد عاد مرة أخرى.

كادت تنصرف ولكني استوقفتها متسائلة:

ـ من سيستخدمها وكيف أعرف شخصه، كما كيف لكِ أن عرفتي أنني بحاجة للقلادة؟ وأنىّ لكِ أن تحملي ملامح مشابهة لملامحي بهذا الشكل؟

اتسعت عيناي وأردفت بصوت منخفض وكأنما أخبرها بأمر جلل: هل أتيتي لي من المستقبل؟

ضحكت بكل حواسها واهتز جسدها النحيف بعنف حتى لظننت بأنها ستفقد اتزانها وتسقط ولكنها أجابت بثبات ما إن انتهى منها الضحك:

ـ ليست كل الأشياء يجب معرفتها، الأهم من المعرفة هو إدراك الهدف وراء كل شيء.

نظرت إليها ببلاهة وعدم فهم، وكأنما كنت مسلوبة الإرادة أخذت أتطلع إلى جسدها النحيف وهو يختفي بين الحشود دونما أدنى حركة مني.

انحسر ذهني بعيدًا عنها حين أبصرت جميل قادمًا نحوى، يحمل شيئًا ما بيده، سألته ما إن دنا مني:

ـ ما هذا؟!

وضعه على العربة وأجاب بحماس:

ـ هذا براد كهربائي، ابتعته قبل قليل.

نظرت إليه مشدوهة فلم أكن لأتوقع منه شيئًا كهذا: ولكن لمَ كلفت نفسك يا جميل؟!

نظر إلي نظرة جعلت قلبي يتنفس وقال:

- كي يجد السائقون ما يُسلي وقتهم، ولا تقومين أنتِ بعمل لا تحبينه، أليس هذا ما تطلعين إليه؟!

لم أجبه وأكتفيت بالنظر إليه بامتنان، وددت في هذه الحظة أن أرتمى بحضنه وأصرخ قائلة أحبك، ولكنه فاجأني بها " أحبكِ رضا" سمعت أذني ضربات قلبي الجزلة وكالمسحورة أجبته:

أنا أيضًا أحبك.

****

بعد حين من الزمن:

" جميل ما رأيك بما قاله مصعب عن ذهاب ملك كي تتعلم فنون الكراتيه"

جاءني صوته مخنوقًا إذ كان يبحث عما يرتديه داخل الدولاب: أنا أرى إنها فكرة رائعة، لكن ابنتكِ لا تحبذها.

زفرت باستياء: إنها لا تحبذ أي شيء، حتى واجباتها المدرسية يتفنن مدحت كي يجعلها تؤديها بأي شكل.

اقترب جميل مني وقال ضاحكًا: إن مدحت دائم الشجار معها وكأنما فتى من سنه.

ضحك قلبي لضحكته أيدتُ كلامه بهزة من رأسي وعلقت: يحبونها كثيرًا.

حدق بي قائلًا: كيف لا يحبونها وهي تحمل من أمها كل ملامحها.

خرجت متجهة لغرفتها كي أوقظها وليبدأ شجار كل يوم كي تذهب إلى المدرسة، هتفتُ باسمها متعجبة حين أبصرتها مستيقظة، نظرت إليّ بملامح ينهشها الغضب قائلة: أمي لا أريد أن يعيش خالي مدحت معنا في هذا البيت فليذهب إلى أي مكان آخر.

سألتها بنفاذ صبر وأنا أتجه للدولاب أجهز ملابسها: ما هذا الكلام يا ملك؟ بيتنا واسع وكبير لمَ لا يعيش أخوالكِ معنا؟ ما تقولينه عيب.

قفزت من فوق الفراش بجسدها الضئيل، أخذت تضرب الأرض وهي تصيح معترضة:

- إنهم يحتلون حياتي يا أمي، يتدخلون بكل كبيرة وصغيرة، لا يوجد أحد من صديقاتي يذهب بها خالها إلى المدرسة كي يوم، أنا لست صغيرة.

تحجرت عيناي، وخرجت مني شهقة منعتها بوضع يدي على فمي، ظهرت أمامي القلادة فجأة بين ملابس ملك تتوهج ببريق لامع، أخذت عيناي تتنقل بينها وبين ملامح ملك المليئة بالسخط...

((تمت))

أميرة زقزوق